2276.9697.366
al-Yāzijī
al-Naqd

DATE	ISSUED TO
DEC 23 1964	Bindery

2276
.9697
.366

2276.9697.366
al-Yāzijī
al-Naqd

DATE	ISSUED TO
DEC 23 1964	Bindery

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 071966277

نـدره اليـازجي

النقد الفلسفي للماركسية

al-Yāziji, Nadrah

نَدْرَه اليازجي

al-Naqd

النقد الفلسفي للماركسية

١٩٦٣

المقدمـة

آثار الفلسفة السلبية

نحن وراء حقيقة للانسان ، نفتش عنها لأننا أناس • وهكـذا نحن وراء فلسفة ايجابية تظهر للانسان حقيقته وجوهره !

من هو الانسان ؟ ولماذا وجد ؟ وماهي حقيقته ؟ والى أين يمضي ؟ ان هذه الاسئلة ترمينا في هوة سحيقة من الاضطراب وعدم التركيز • ولذلك ، لعجزنا عن تفهمها وادراكها أو بالاحرى بسبب تقصيرنا في الفهم والتغاضي والاهمال في المعرفة ، نقع في حيرة وفوضى • وماذا يمكن أن يعمل الانسان عندئذ ؟

يتراجع الانسان ! وفي تراجعه هـذا يرتمي في أحضان الافكار التي تجعل منه خالقاً لمفاهيمه وقيمه • وهكذا ينحرف الانسان عن رسالته الصحيحة • ولذلك يصبح سلبياً لانه لم يدرك ايجابيته التي تتمثل بأنه هدف الحياة وكيان الوجود •

وهكذا يأخذ الانسان في سلبيته أي من ماديته سلاحاً ضـد الطبيعية وضد نفسه • **فيثور لأنه لا يعي ولا يدرك** • وعوضاً عن أن يسير في طريق وجوده الذي رسم له ، وعوضاً عن أن يحقق امكانياته وقدراته وطاقاته المكنونة في كيانه ، فانه يحاول أن يخلق قيماً من عنده تلوذ بمادته وتعبر عن ذاته •

هكذا ، وجدت الفلسفة السلبية التي أقامت مفاهيمها على الثورة والصراع وخلق ديالكتيك يقوم على التناقضات في داخله وخارجه •

* * *

2276
.9697
.366

لا أستطيع في هذه المقدمة القصيرة أن أوجه انتقاداتي كلها للفلسفة السلبية ، وكل ما أنشده وأرجوه هو أن أبحث في المفهوم الكامل للنظام الاجتماعي وأن القي نظرة على نفس الانسان وفكره لكي أستطيع أن أصل الى السبب الذي دفع بعض الخياليين أمثال ماركس أن يسمي نظامه بالشيوعية ٠

لم تكن نشأة النظريات السياسية نتيجة تطبيقها على الواقع الاجتماعي ، بل كانت نتيجة اندفاع الانسان في تيار جارف لاضطرابه وفوضويته ، وكانت عاملا مهماً دفعته لكي يجد طريقاً للخلاص من كل مايشوبه من شك ومايعترضه من عذاب ٠ ولذلك نجد أن النظريات الفلسفية تعددت ، وتعددت معها الحلول الايجابية والسلبية ٠ كانت بعض النظريات ايجابية فأوجدت بعض الاسس الاخلاقيةالتي ألزمت الانسان أنيتقي بواسطتها الفوضى والاضطراب . وكانت هناك بعض النظريات السلبية التي أجبرت الانسان أن يخلق حلولا معاكسة للحلول الايجابية التي قدمت ، وكانت الثورة والفوضوية والاعمال التي جعلت من القوة الخلاص من كل أذى وضرر اجتماعي ٠ وجعلت هذه النظريات عملها مرتبطاً بواقع وهمي للانسان وزعمت أن خلاصه لن يكون الا بسيطرته وتسلطه على كل ما يدعى بالاخلاق والمثل ٠ ومن هنا نشأت الشيوعية التي قلبت المفاهيم رأساً على عقب ٠ وتلخص بما يلي : رفض الحلول التي لا تجعل الانسان سيداً على ذاته ، وتحطيم المثل التي لم توجد حلا منطقياً ومعقولا لواقع الانسان ٠ ولذلك أخذت تفتش عن كل ما يسمى عكساً لتلك الحلول فخلقت الحل الذي سيخلص البشرية من كل عذاب والذي سيؤدي الى الهدوء والراحة والسعادة والمساواة ، وبكلمة وجيزة ، خلقت الفردوس ٠

لقد وقعت هذه النظرية السلبية بخطأ مزدوج · الاول وهو اعتمادها على النظريات الاخلاقية والثاني هو الاستنتاج المحتم لتلك النظريات وبناء المجتمع الجديد على الخيالات التي خلقتها من جراء اتباعها لتلك الحلول · لقدكان الوقوع بالخطأ الاول شديداً وذلك لان النظريات الايجابية لم تكن حلا كاملا لحقيقة الانسان ، ولهذا لم تكن حقيقة صافية · وما يبرهن على هذا القول هو أنها منقسمة على ذاتها · لقد قسمت الانسان وأوجدت له حلولا كثيرة للخلاص · ولذلك لم تكن غاية بذاتها · وهنا كان الخطأ الفادح الذي وقعت به الآراء والنظريات السلبية المادية التي اتخذت من تلك النظريات الايجابية مثالا وارادت أن تقيم مثالا جديداً معاكساً لها تماماً · فالخطأ اذن هو أنها اعتمدت على قيم لم تكن حقيقية بذاتها · ويظهر الخطأ الثاني في أن الاستنتاجات التي توصلت اليها لم تكن صحيحة والركائز التي اعتمدتها لم تكن مثالية ولذلك نجد أن الحلول الاخيرة لم تقدم للانسان ولم تساعده على حل مشكلته بذاته بل زادته تعقيداً وجعلته أن ينقاد الى تيار غامض لا منطقي فيحاول أن يحل أموره بوسطة القوة والعنف ·

ولقد برز أمر مهم جداً · اذا كانت تلك النظريات الايجابية قاصرة عن ايجاد حل وقيمة لمفهوم حقيقة الانسان ، فان التطور الانساني كان يجب أن يتبع طريقين لا ثالث لهما : أما ان هذا التطور كان يسير على الطريق الذي انتهجته تلك النظريات المتضاربة ويلاقي الصعوبات واما انه كان يسير عكس ذلك الطريق ، ولكن بنفس

الاتجاه ، فيسوي ويعدل من سيره • وعلى كل ، فان هذا التطور كان سيستقيم طالما أنه يناقض بعضه ويحاول أن يجد حلا من جراء الصراع الداخلي القائم • ولكن النظريات السلبية أوجدت حلا رغم كل هذا ، حلا يجب على الطبيعة ذاتها أن تسلكه لانه لا مناص من سلوكه • لذلك أوجدت انحرافاً عن السير الكائن للتطور ، ولو لم يكن كاملا ، وجذبته نحو الفوضى والحروب والثورة •

لم تكن نظرية واحدة أساساً للحقيقة الكاملة • العالم فكرة وقد انبثقت عنه الافكار التي ، وان كانت مختلفة في الاسم ، هي انموذج واحد للفكر الانساني • ولذلك لم تكن الشيوعية أو النظريات السلبية المادية فلسفة قائمة بحد ذاتها ولم تكن برهاناً خاصاً لوجهة نظر خاصة بل كانت تعبر عن فوضى اجتماعية ، اذ أن كل تعابيرها انبثقت عن النظريات الاخرى ووضعتها بقالب أطلق عليه اسم معين •

لا نقدر أن نصل الى خلاصة معينة في سطور النظريات السلبية لانها نظرت للحياة وللناس من وجهة نظر مادية تعتمد على تحقيق أقرب الوسائل بأسهل الاساليب • وهكذا لم تعد هذه النظريات مبعث استقرار وهدوء للمجتمع بل أصبحت ثورة جامحة تقوم على كل تحد لقوانين العالم القديمة وللتطور اللامنطقي والعفوي • ولذلك أصبحت الفلسفة المادية مقياساً لكل نظرة لا أخلاقية تعمل على تهديم كل أخلاقية وجدت بين الشعوب ، هذه الاخلاقية التي كانت تعتبر مقياساً لنمو وتطور العقل •

لذلك نجد الشيوعية بفلسفتها المادية تحتوي على كل تناقض ملموس خارج وداخل اطارها • فهي تبني علاقاتها ونظمها على

مفاهيم تاريخية ونظريات أخلاقية وروحية لم تكن تعبر عن حقيقة مطلقة بل كانت تحمل تناقضات كثيرة · وهكذا ، كنتيجة حاسمة ، نجد أن الشيوعية تناقض الواقع ، اذ لايمكن بناء قاعدة ما اذا لم تكن تعتمد على أساسها الخاص وعلى الوسائل التي تراها مناسبة لتماسك البناء والقاعدة · فاذا أقمنا القاعدة على قاعدة سالفة ولم نأخذ الوسائل الجديدة بعين الاعتبار ، فلابد أن تقوم هذه القاعدة على أساس ضعيف وخاطىء ·

وهذا ماحدث لكارس ماركس على سبيل المثال · لم يكن الديالكتيك نتيجة حتمية لتفكيره بل انه قلب ديالكتيك هيجل وحوله الى نظرة خاصة للتطور المادي · وهكذا برهن على أن النظريات السلبية قامت على تناقض النظريات الايجابية فأوجدت تناقضاً جديداً · ويمكن تقديمها على هذا الشكل :

النظريات الايجابية ـ تناقض النظريات الايجابية

النتيجة

النظريات السلبية

وهكذا لم نحصل على النظريات السلبية لولا التناقض القائم في النظريات الايجابية · وهذه الاخيرة لم تكن نظرة واحدة أو اثنتين بل كانت نظريات متعددة تنظر للحياة بمقاييس مختلفة ولكنها احتفظت بايجابيتها وذلك لانها لم تعتمد على أساليب غير مألوفة للقضاء على الشرور الاجتماعية ، بل انها اتبعت وسائل لا تغاير

الواقع الاجتماعي · وماذا تستطيع أن تفعل النظرة المادية ؟ على أية فلسفة ايجابية تستطيع أن تعتمد ؟ انها لا تستطيع الاعتماد على فلسفة معينة لان هذه الفلسفة لا تعبر عن واقع الفكرة · ولذلك وضعت تلك النظريات كلها تحت عنوان ودعتها بالطوباوية والمثالية · وهكذا اشتقت اسمها بنسبة عكسية وسميت بالمادية ·

وهكذا لا يمكن أن تكون الشيوعية فلسفة حقة قائمة بذاتها أو أنها تعبر عن كيان الانسان لانها لا تأخذ الانسان وجوهره بعين الاعتبار بل تعتبر ماقيل عنه في أزمنة مختلفة وجعلت من هذه الاقوال عنواناً جديداً لفلسفة سلبية ، ولذلك أخذت ما يناسبها وتركت الباقي · وهذه هي المكيافيللية · فالشيوعية مكيافيللية بطريقة ما ، لكنها مكيافيللية متطورة ومنطلقة في آفاق الالم الانساني وشقائه ·· لقد بنت قواعدها على التناقضات ولا تستطيع أن تزيلها الا بايجاد وخلق تناقضات جديدة · ولذلك لم تبن صرحها على مفهوم قوي وخالد · فالتناقض موجود في كل مفاهيمها : في الملكية ، في التوزيع والتنظيم وفي النظام ذاته ·

* * *

ان نقدي للمظاهر الخارجية لحضارة الانسان لا يتوقف على تحطيم صرح الشيوعية بل على نقد الفلسفة السلبية · لم تكن هذه الفلسفة نظاماً قائماً ولم تعبر عن وجهة نظر معينة بل سادها التناقض · لم يتمكن فرد من الافراد أن يحيط علماً بدراسة الفلسفة المادية لانها لم تكن وليدة فكرة معينة بل كانت تطوراً لا منطقياً ولا واعياً لحقيقة الانسان ·

قامت الفلسفة المادية على تناقضات عديدة ، عـــلى الصناعات المتناحرة ، على أساليب العيش غير المنظمة ، وعلى نظرة الانسان للحياة اللاواعية وعـلى مزج المثال بالواقع والروح بالمادة • فهي لـم تكن أنموذجاً لتقدم الفكر والاعتماد على حقيقة الانسان بل كانت تعبر عن صراع المفاهيم البشرية التي خلقها الانسان نتيجة جهله وجعل منها صنماً يعبده • وقد انبثقت الشيوعية أيضا عن هذا الصراع •

ان مشكلة الانسان هي نفسه طالما انه لا يستطيع أن يفهم جوهره وحقيقته • فكيف يعقل أن يعمل المرء وينظم حياته بينما لا يقـدر أن يعرف الحقيقة المكنونة فيه ؟ ان النظم الاجتماعية أو هذه الاسماء والالقاب التي نطلقها على بلدان مختلفة هي خلاصة الصراع القائم بين الانسان ونفسه • ولذلك تكون دراستي هذه خلاصة الصراع القائم بين الانسان ونفسه ، وتكون شرحاً للفلسفة السلبية •

ان الحلول الحقيقية التي تقدر ان توجد استقراراً في المجتمع هي تلك التي تنظر للانسان نظرة اكبار وحق وعظمة ، والتي تبني مفهوم الاجتماع عـلى أساس من التفاهم والتقارب بين الناس عـلى أساس المحبة وفهم الانسان الذي يجب أن يشارك غيره بكل طاقاته • وعلى هذا الاساس ينطبق الواقع عـــلى المثال وتكون حياة الانسان تحقيقاً لفكره وواقعه •

فالماركسية لا تقدر أن تحقق جوهر الانسان طالما انها تسمية لحالات معينة في ظروف خاصة وعلى تفكير خاص حاول أن يجمع فكرة العالم في اطار واحد ضيق • وطالما أن العالم لايمكن أن يكون فكرة واحدة في اطار واحد حسب النظريات المتعددة والسلبية لانها تناقض

بعضها ، نجد أن الماركسية قد أوجدت فلسفة التناحر على المادة ، وحاولت أن تخلق فكرة للعالم من المتناقضات • يمكن اعتبار العالم فكرة واحدة عندما ننظر لجوهر الانسان والوجود انهما واحد • ولذلك لايمكننا أن نعتبر الآراء العديدة المتناقضة حقيقة قائمة بذاتها •

لم يقم هذا النظام على المفهوم الاسمى للانسان ولم يستطع أن يبني صرح الاستقرار والسعادة ولذلك اعتمد على تبرير موقفه بالانحراف فأغرق الانسان بالثورة والعنف وبذلك حاول ايجاد حل رمزي لمشكلته • وفي هذا الكتاب سأدرس الشيوعية بأكمل مظاهرها وسأفتش عن أسسها ومصادرها ••

« **المؤلف** »

محتويات الكتاب

١ ـ نشأة الشيوعية وتطورها

١ ـ النظريات المتعددة ـ النزعة الانسانية
٢ ـ الهيجليـــة
٣ ـ اليهوديـــة
٤ ـ المسيحيـــة

٢ ـ مفاهيم الشيوعية

١ ـ نقد مفهوم الثورة
٢ ـ نقد مفهوم الطبقات
٣ ـ نقد مفهوم الملكيـــة
٤ ـ نقد مفهوم التطـــور
٥ ـ نقد مفهوم الماديـــة
٦ ـ نقد مفهوم الحريـــة
٧ ـ نقد مفهوم المســاواة
٨ ـ نقد مفهوم السلطة والديكتاتورية
٩ ـ نقد تطور الشيوعية من الديمقراطية للانسانية
١٠ـ الازمـــات
١١ـ الشيوعية والانســانية

الباب الاول

نقـد الشيوعيـة

نشأة الشيوعية وتطورها

ما شئت أن ادرس المفاهيم الوهمية التي تعتمد عليها الشيوعية بل اردت ان ادرس المراجع التي اعتمدتهـا لكي تبني حلهـا العالمي وآراءها الغريبة · وهذا مايدفعني أن أظهر الشيوعية بأنها خلاصة تناقض الاراء والنظريات الكثيرة الكائنة في الفكر البشري والموجودة في صفحات التاريخ · واول ما اريد اظهاره هو الحقيقة الدائمة التي بنت عليها الشيوعية بناءها الشامخ الهرم ، وهذه الحقيقة قائمـة وكائنة في النظريات المتعددة التي دونتها أدمغـة المفكرين ·

- ١ -

النظريات المتعددة ـ النزعة الانسانية

يعيش العالم ضمن اطار الفكر البشري ، هذا الفكر الذي يرتكز على أسس بناها بذاته · ويقوم أيضا على الفهم الذي استنبطه الانسان من وجوده وكيانه وذاته · فالكيان يعبر عن المطلق والروح واللامحدود بينما تعبر الذات عن الموضوعية والمقيد والمادة أي المحدود · واصبح الفكر البشري ميالا الى اعتناق الوقائع المادية منها والمعنوية · ولكن الانسان أخذ يميل نحو الذات وامكانياتها ومقدراتها طالما انها تعبر عن قوته الفعلية التي تمكنه من تفهم ما يحيطه وما يكمن قربه من عوامل مادية وانفعالات داخلية ·وهكذا أصبح العقل هو المحرك الاول

الذي يعتمد على انفعالاته الذاتية وقواه المادية · فالحقيقة عنده هي انعكاس للواقع المادي · والواقع المادي هو التفاعل مع ذاتيته وهو المظهر الحقيقي للوجود ·

لم يعتمد الانسان على العقل كسبيل للمعرفة التامة بل بقي هناك جانب غامض من كيانه وشخصيته · وهذا الجانب الذي ادعوه كيانا يقع في أعماقه وله مبادئه ومقدراته · ولقد جعل الانسان قواعد عامة وخاصة لذاته بينما وضع أيضا قواعد عامة (وليست خاصة) لكيانه لان الذات تحت متناوله في معظم الاحيان اذ انه يعكس عليها ويتفحصها ويدركها او على الاقل يسير في تيارها ويتيه في طرقها الملتوية ·

رأينا اذن ان الفكر يعتمد على ناحيتين من التحليل : الاولى وهي المطلق ويقوم على الكيان· والثانية وهي الذات وتقوم على الانعكاسات الخارجية للمادة وللطبيعة· ولقد جعل الانسان مفهومين لشخصيته ، اذ انه اعتمد على الجانب الكياني لكنه لم يعتبره كواقع مادي صرف بل بقي ضمن اطار الفكر بينما اعتمد الواقع المادي الذي يقوم على العقل وجعل منه قوام التطور والعيش · وحيال هذين المفهومين (اللذين أعدهما وحدة) عاش الانسان في صراع دائم بينه وبين نفسه·

ولكي نعلم ما هي مقومات هاتين القوتين نعود للانسان نفسه لنفهم انه ينقاد للفكر كمطلق وينقاد للواقع نتيجة لانقياده الى تيار العقل · ويبقى المطلق فكرة كونها العقل في درجاته العليا بينما تبقى العوامل الاخرى كتطبيق علمي لمنطق الحياة البشرية · لكن الانسان لم يطلق الفكر كله بل عكس عليه من تلقاء ذاته لانه موجود به ·

وكانت أسئلة كبيرة وكثيرة تتعلق بكل أفكاره المطلقة وتعبر عن سبر اغوار نفسه التي لا يعيها . لقد سأل الانسان نفسه من هو ، من أين اتى ، وكيف كان ، ولماذا وجد، وكيف وجد ، وما سبب وجوده. وبقي متعلقا بهذه الاسئلة ليومنا هذا ولم يستطع ان يجد جوابا ملموسا وحساساً ولم يستطع ان يعبر عن تلك الطاقة الفعالة التي توحي اليه بهذه الاسئلة .

بقيت أسئلة الانسان معبرة عن قلقه الدائم ولذلك اوجد لها أنصاف الحلول لكنه لم يجد الطريق الحقيقي . لقد علم المرء انه يحيا ويعيش في كون غريب او مألوف . وعرف انه موجود بدون شك ولا يستطيع ان يتخلى عن وجوده . اذن عليه ان يحقق هذا الوجود . ان تحقيق الوجود فكرة مطلقة انطلقت من الفكر الذي يعتبر الحركة الاولى لسير كينونته وتحقيقها . وهكذا وجد ان الحياة والوجود فكرة وهذه الفكرة تعبر عن كينونته .

أما الكينونة هذه التي لم يستطع الانسان ان يضع لها حدودا عميقة كانت بمثابة نزعة يرى من خلالها حقيقته المرئية وغير المرئية . ولكن طالما ان حقيقته المرئية هي أقرب لما يمكن ان يكون فكرة واقعية لذلك اوجد الواقع الذي يقوم على تفهمه للامور التي هي أقرب لمتناوله.

ان مفهوم الانسان فيما يخص العيش والحياة قائم اذن على مقدرته على الفهم والتبصر . ولا بد اذن ان يشكل قيماً ومفاهيم . أما تشكيل القيم والمفاهيم لا يتم الا بوجود العناصر المؤاتية لهذه القيم . ولا يمكن ان توجد هذه القيم لولا وجود الكيان عند الانسان الذي يعبر عنه بمجموعة مفاهيمه للحياة . فالقيم المشكلة عند الانسان

قائمة على فكرته المطلقة للكون والمادة . اذن نستطيع ان نقول ان للانسان قيماً ومفاهيم تنبعث وتنبثق عن كيانه الانساني العظيم .

يجب ان تكون هذه القيم معبرة عن فكرة لانها تدور نحو نقطة واحدة وهي الوجود والكينونه . والكيان الانساني موجود في هذه الكينونة ، اذن هو فكرة الكينونة . والمفاهيم التي يشكلها الانسان هي نتيجة لهذه الفكرة التي تعبر عن كيانـه . اما كينونته فيمكن اعتبارها النقطة الثانية في الحديث .

رأينا من هذا أن الفكرة قد تشكلت عند المرء وبعدئذ تحولت الى مفهوم وقيمة تعبر عن الفكرة ذاتها في اطار الكينونة والوجود . وهذه الفكرة متأصلة في الانسـان ويمكن أن تكون واعيـة وغير واعية . والقول الاول بأنها واعية هو قول حقيقي لانه لايمكن أن تكون الفكرة الا واعية طالمـا أنها فكرة تعي نفسها وتدرك أنهـا جوهر وكيان . والقول انها غير واعية هو قول لايعتمد على منطق ، رغم انه واقع . بل الامر كله هو أن اللاوعي هنا يظهر عندما تظهر الفكرة للوجود وعندئذ يطغي الوجود عليهـا وتعود قيمة ظاهرية أو مفهوما عـاما للقياس والتوحيد .

والمهم هو أن الفكرة قد تشكلت وأوجدت قيمة . وهذه القيمة هي مفهـوم الوجود الانسـاني . وهكذا يجب أن يتحقق الوجود الانساني . ولكن كيف يمكن تحقيق الوجود ؟

هنا تكمن الصعوبة وهي وجـود الانسان في اطـار من الوعي المادي لوجوده . لقد قلنا أنه أوجد قيماً ومفاهيماً وقامت هذه على

مقدار ماوعاه من ذاته وكيانه · وبما انه لم يستطع ادراك كيانه وجوهره جيداً أخذ ينظر لذاته بعين الاعتبار · وأصبحت الذات تشكل العنصر العامل والفعال في تطور مفهوم قيم الانسان بالنسبة لمحيطه وحياته ومعيشته وكينونته · وهكذا شكل المفاهيم المتعددة فيما يتعلق بارتباطه بالمواضيع العامة التي لها صلة كبرى بوجوده ·

* * *

نستنتج من هذا أن الانسان يصارع نفسه لكي يجد حقيقته وقيمته العظمى · واذ انه لا يدرك هذا الكنه العميق ادراكاً عظيماً فقد انقسم على ذاته وأوجد قيماً تتفق أو تناقض وجوده ككائن حي له المنزلة الاولى في الحياة · لقد أوجد اذن تحديدات لذاته ولنفسه · تحديدات ضيقة او مطلقة ، محدودة أو غيرمحدودة ، وهكذا استطاع أن يخلق مفاهيمه الخاصة التي انبثقت عن وعيه للذات وادراكه لمصالحه الخاصة المادية ·

وهكذا نجد أن هذا الصراع ظاهر في النظريات المتعددة التي مرت عبر التاريخ والتي عبرت عن قيم الانسان المتعددة · فانقسم الفكر الانساني لنظريات تقول بالروحانية ولنظريات لا تقر الا بالمادية ولنظريات تحاول الجمع بين الاثنتين · فالنظريات الروحية أخذت تبحث في الانسان من خلال وجوده ككائن حي يعمل لفكرة مطلقة ليحقق نفسه في اطار الفكرة · ونظرت للمادة كأداة يهدف منهاسيطرة الروح عليها أو تحقيق الروح لمبادئها وقيمها بواسطتها · وتعد هذه النظريات نظرة عظيمة في الانسان لانها تحاول رفعه الى المستوى الذي يليق به ككيان عظيم يترفع عن المادة · ولكن لم تستطع هذه

النظريات الروحية أن تحدد الجوهر الاصلي لحقيقة الانسان التي لا يشك بها ولذلك بحثت الموضوع كله من زوايـــا معينة بالنسبة لمقدار تفهمها لاصل الانسان ومقدراته النفسانية في التحليق في عالم الخير المطلق والروح . وقد اختلفت هـــذه النظريات بين بعضها اختلافا كبيراً .

ومن هنا نبعت النظريات المادية التي تنكرت لكل قيمة روحية عند الانسان . وبحثت الواقع البشري من زاويـة المادة والوجود والطبيعة . وأقرت أن الطبيعة هي الام ، والطبيعة مادة . والانسان مادة بطبيعته ، لذلك هو مادي طبيعي طالما أنه يسير على القانون الطبيعي للحياة . لقد تنكر فلاسفة المادة لكل ماهو روحي لانهم لم يجدوا نظرة ثابتة واحدة تتعلق بروحانية الانسان والكون وتفسر قيمة الانسان الروحية ، لذلك ابتعدوا عن النظريات الروحية وربطوا الانسان بواقعه المحتم وهو المادة . لقد اعتمدوا في هذا الحل على أن الانسان يعيش في واقعه المادي ولذلك عليه أن يحققه : وتحقيق المادة هو الامر الجوهري لحياة الانسان . وقالوا ان كل ماندعوه روحياً هو نتيجة لانعكاسات الانسان وتفكيره . فالفكرة اذن هي نتيجـة حتمية لواقع الفرد ونتيجة عكسية لتفكير الانسان بواقعه والذات عندهم هي القوة الفعالة التي تسير العالم .

وعند هذا قام نفر من العلماء والمفكرين لم يوافقوا الروحانيين بالنسبة لتطرفهم وشرحهم للامور من زاوية روحية بحتة ولم يوافقوا الماديين لانهم اعتنقوا مبدأ المادة المحدودة وجعلوها قياسا لكل فكرهم ووجودهم . ولم يجد هؤلاء الفلاسفة بالروحانية حلا وحيداللكينونة لانهم وجدوا أن الروحانية لا تفسر وتشرح من نقطة واحدة بل ينظر

اليها بمنظار مختلف يعتمد على الذين شرحوا مبدأ الروح • وهكذا لم يجدوا أيضا ما يروي غليلهم فيما يتعلق بالمادة ، وعلموا أن فلاسفة المادة لم يستطيعوا أن يجدوا حلا مرضياً للوجود وبقيت الحياة على ما كانت عليه • فالروح والمادة في نظر هؤلاء الفلاسفة الذين يشكلون الدرجة الثانية في دراسة الوجود بحديه – الكيان والذات – لايمكن فصلهما عن بعضهما لانهما يكونان مفهوماً واحداً هـــو الانسان • الانسان الروح والمـــادة •

* * *

تلك الفئات الثلاث لم تجد واقع الانسان وحقيقته في كل أبحاثها لانها أخذت المظاهر الخارجية وبنت عليها خيالاتها واستنتاجاتها • فالروحيون تنكروا لكل ما هو مادي لان المادة أمر ثانوي وهي فانية في نفس الوقت ، ولذلك لا يمكن أن يكون لها جوهر ثابت • وأمـــا الماديون فلم يعتنقوا الروحانية لانهم لم يجدوا شيئاً ملموساً فيمـا يتعلق بمفهومهم وادراكهم ، الغير الواقعي للمادة والروح • لذلـك وجدوا أن الطريقة الوحيدة لتفهم الحياة هو الوصول الى مفهوم المادة وتحقيقه بواسطة المادة ذاتها • وهكذا نجد أن المواضيع الاجتماعيـة أصبحت لها وجهات نظر مادية تحاول أن تنظم التاريخ والواقـع الاجتماعي بشكل قريب من الذات الفردية • فالعالم المادي في نظرهم هو العالم المتطور من شكل مادي بدائي وأصلي الى شكل مادي أعلى وأرقى • ولكن الى أين يصل هذا الشكل وهل سيصل الى الروحانية بعد أن يسير في تطوره الى الكمال ؟ وهنا كانت أخطاء الماديين •

ونتيجة لهذه النقائص كلها ، ونتيجة للفوضى الثقيلة التي مر

بها الفكر في كل العصور تطورت هذه الافكار وأخذت تتداخل ببعضها لدرجة أن العقل البشري أخذ يعتقد بشيء من الروحانية والمادية على السواء . فأصبح الفكر دماغاً وعقلا . فالدماغ هو الكم والعقل هو الكيف . ولايمكن أن يكون الانسان مجرد عقل أو مجرد روح ، وهكذا يجب أن يكون الاثنين معاً . فاذا فنى الجسد بقيت الروح ، واذا أتت الروح للحياة الارضية فانها تجد المادة وتسكنها . فالمفهومان متلازمان والطبيعتان ، المادية والروحية ، تعملان جنباً لجنب . وهكذا تكون المادة وسيلة ثانوية للوجود كمفهوم مادي وتكون الروح الابدية فكرة حقيقية بالنسبة للخلود والبقاء لانها المحرك الاول . وتكون المادة مساعدة للروح من كل الجهات . فالمادة تشكل درجة أولى للروح لانها تعمل بها لوقت معين ثم تنطلق الى آفاق أوسع وأوسع حتى تحقق المطلق والحقيقة . وهكذا تعبر الروح عن الحقيقة الناصية والخالدة بينما تعبر المادة عن حقيقة جزئية تعمل للروح وتستمد قوتها منها .

* * *

لقد أشرت في بدء حديثي الى الصراع القائم بين الكيان والذات . ولم أشأ أن اسمي الكيان بالروح لكي لايؤخذ مأخذ العلماء الروحانيين والا الذات بالمادة لكي لاتؤخذ مأخذ الماديين . والمفهوم أن الكيان هو وجود الانسان في دائرة المطلق بينما الذات هي وجوده في دائرة المحدود والمادة وتعني الذات شيئاً أكثر من المادة اذ أنها تعمل على تحقيق ذاتيتها وتحاول السيطرة على الكيان أو المطلق واخضاعه لها وجعله آلة لها أي للمادة . وهكذا تكون الذات هي المسيطرة التي لا تتعرف على الاخلاق والروح . والكيان لايعني نفي المادة ولكنه يعني نفي

الذات ، لان الذات هي محاولة تحقيق المادة بوسائلها المنحطة • بينما يمكن رفع المادة اذا لم تكن متعلقة بذاتها • فالذات اذن هي درجة الحيوانية والكيان هو درجة الانسانية •

ولكي نشرح المفهوم بشكل أوسع لدى تشكيل الانسان للمفاهيم استطاع أن يخلق ذاته لانه لم يستطع أو لم يشأ ويحاول أن يفكر بمقدرته في فهم نفسه ، فأوجد الذات وجعلها الواقع الذي لايمكن وجود غيره ، وهذه هي المادية أي الذات • ولكن الانسان لم يبق ضمن اطار المادية فقط بل تعداها وجعل من هذه المادية ذاتاً له • لقد أخضع نفسه كانسان لذاته • وهكذا أصبح بمثابة الحيوان الذي لا يدرك سوى العيش • ان وجود الذات وتحقيقها هي الوصول بالمادة الى نقطة عدم الاعتراف بحقيقة الانسان الاصلية أي المطلق والروح أي الكيان • وليست الذات مادة بحد ذاتها بل هي انطلاق المادة في مجال اللاوعي المادي ، وذلك لان الانسان لم يستطع أي يعي حقيقته كانسان • فتعلق عندئذ بمادته أي بذاته ، بوجوده كقطعة مادية تعمل لذاتها وتحقق امكانياتها الحيوانية • فأصبحت رغائب الانسان شهوات وأصبحت آماله وانطباعاته غرائز تدور وتسير باللاوعي ، وأصبح وجوده نفياً للوعي • وذلك لان الانسان أخذ يعمل للوجود وليس لتحقيق طاقة وفكرة الوجود • وهكذا لم تعد هناك فكرة يعمل لاجلها الانسان بل أصبحت هناك ذات تعمل لتحقيق ذاتها أي متطلباتها • وليست متطلباتها سوى شعورها الدنيء بوجودها المادي البحت •

الفرق واضح اذن بين المادية والذات • فالمادية تعمل كمادة ولكنها تعتبر الاخلاق والفكر كانعكاسات للمادة وتعترف على الاقل

بوجود فكرة · أما الذات فانها لا تعمل الا لذاتها اذ ليس لها فكرة · ووجودها هو تحقيق الذات عن طريق عدم الاعتراف الا بوجود المادة لاغير وتحويل المادة الى هدف معين ، وهو تطوير المادة بذاتها لا عن طريق آخر ·

كان الماديون يعتقدون أن الفكرة يمكن تطويرها بتطوير المادة · أما الذات فاصبحت لا تعرف ولا تعترف بالفكرة بل أن تطوير المادة فقط هو الهدف من الوجود · وتطوير المادة هذا هو أن الذات لاتعرف غيرها ولا تنظر الى الفكرة أو الى الاخلاق أو الى المفاهيم المعنوية الاخرى بأنها كائنة وانها قسم منها أو عامل مهم لوجودها بل تعرف انها انبثقت من ذاتها ولا تسعى الا ذاتها · وهكذا لا يوجد سواها ، أي لاتوجد سوى المادة ولا أساس للحياة الا كمادة ولا معرفة للعالم بدون مادة ، ولا اطار له غير المادة ، ولا حياة الا مادة ، ولا جوهر الا المادة · اذ أن الذات تنكرت لكل ماهو غيرها وأصبحت لاتعي سوى المادة · وهكذا انحطت الى درجة الحيوانية ·· وهذا هو الفرق بين المادة والذات ·

* * *

ونصل الآن الى الشيوعية وأقول انها الذات · وكيف يمكن تفسير هذا ؟ وكيف نالت الشيوعية هذا المفهوم من جراء دراسة النظريات السالفة ونوعية الذات ؟

* * *

لم تعترف الشيوعية ، كاية نظرية أخرى ، بأي شيء · وجدت نظريات لم تعترف ببعضها لكن الشيوعية تنكرت لكل النظريات ·

وكما قلت أن المادية انتقدت الروحانية وان اتباع الروح والمادة حاولوا أن ينتقدوا الاثنتين ، هكذا نجد أن عناصر الحياة تعبر عن تناقض في سيرها الطبيعي أي المادي لان هذه النظريات لم تقم على معرفة ثابتة لشخصية الانسان بل اعتمدت على المظاهر الخارجية للانسان والطبيعة · وهكذا تناقض بعضها البعض بسبب جهلها وعدم ادراكها · ولكن بقيت هذه النظريات تحتفظ على الاقل بقيمة للنظرية التي سبقتها وقامت تنتقدها ، بينما نرى أن الماركسية لم تعترف بشيء من هذا القبيل ، والماركسية التي تزعم انها تعتمد الديالكتيك لم تأبه له بل ناقضت ذاتها ·

ولنحاول أن نفهم الامر من ناحية الديالكتيك · فلو قلنا أن الروحانية هي الفكرة والمادية هي تناقض الفكرة لكانت الروح والمادة هي النتيجة · وهكذا لا مبرر لوجود مادية الشيوعية لانه كما قلت ، وجدت فكرة وعكسها ونتيجتها · ولكن ماذا فعلت الشيوعية عندما حاولت أن تنتج شيئاً ؟

بما أنها لم تعتمد على ديالكتيكها اذ علمت انها تناقض ذاتها ، اذا اعتمدت عليه ، فانها عمدت الى طريقة أخرى وهي اظهار الواقع التاريخي ودحض النظريات الروحية والمادية والروحية المادية معاً ·

وماذا فعلت الشيوعية بهذا الصدد ؟

لقد فشلت في اظهار الحقيقة بالنسبة للانسان · انها لم تعتمد على الروحانية لانها لا تقوم على الوجدان والحق ، ولم تعتمد على المادية كما هي ، لانها وجدتها طوباوية رغم أن ليس لها علاقة بالروحانية بشكل أو بآخر · ولم تعتمدعلى مفهوم الروح والمادة لانها وجدت أن التناقض بين الاثنتين قائم · فماذا فعلت ؟

رأت الماركسية أن العلماء الروحانيين حاولوا أن يفسروا الانسان والوجود والتاريخ من وجهة نظر معينة أي من الناحية الروحية، حتى ولو كان شرح علماء الروح لايؤلف وحدة متماسكة · ورأت أن العلماء الماديين حاولوا أن يفسروا الانسان والوجود من وجهة نظر معينة أخرى ، أي من الناحية المادية التي لها علاقة بالروح بشكل أو بآخر، ولو كان شرح علماء المادة لايؤلف وحدة متماسكة · ورأت أن علماء الروح والمادة لم يقدروا أن يجدوا الطريق المستقيم أي الحل النهائي لمشكلة الطبيعة والانسان · وهكذا خلقت مشكلة الشيوعية اذ رأت أن الاسس الثلاثية التي تشكل الدراسة الوحيدة للانسان والتي بحثته من كل الوجوه لا تؤدي ، بنظرها ، الى نتيجة حاسمة لتقرير مصير الانسان · **ولذلك كانت الشيوعية رد فعل للآراء الانسانية ·**

يجب على الماركسية أن تفعل شيئاً حتى ولو كان متناقضاً ·· ان نظرتها للحياة مادية ولكنها ليست بالمادية التي قال بها العلماء الماديون وهكذا نفت المادية · ولم تقف عند هذا الحد بل أنها نفت الروحانية القائمة على نوع من المادية ، وأخيرا نفت الصلة القائمة بين الروح والمادة · وهذا ما فعلته :

١ ـ نفت الماركسية المادية القائمة على الروحانية · وبهذا نفت المادية العاقلة حتى ولو أنها جامدة ومخطئة ·

٢ ـ نفت الروحانية القائمة على المادية وبهذا نفت الروحانية نفياً تاماً ·

٣ ـ نفت الروحانية المادية أي العلاقة القائمة بين الروح والمادة ، وبهذا نفت الكيان الانساني كله ·

وتوصلت الى النتيجة الحتمية :

١ ـ نفت الماركسية الكيان الانساني كروح أو مادة أو كروح ومادة ٠

٢ ـ نظرت الماركسية نظرة مادية بحتة ٠ وبهذا اعتمدت على الذات ٠

٣ ـ لكن الماركسية نفت المادة أيضاً ٠

٤ ـ لذلك يجب أن تقدم تفسيراً جديداً للمادة ٠

بما أن الماركسية كلها نفي بنفي (وهذا دليل على تناقضها وعدم وجودها لانها لا توجد الا كخيال ووهم) ، هكذا يجب أن تبقي على شيء تعتمد عليه ٠ ان نظرتها مادية بحتة ولكنها نفت المادية ٠ اذن يجب أن تفسر المادة تفسيراً جديداً ٠ وهكذا أطلقت على المادة اسماً جديداً وهو مادة المادة أي الذات ٠

الحياة ، في نظرها ، مادة ٠ والمادة ذاتها كائنة بحد ذاتها ٠ ولايمكن أن يكون وجود لسواها ٠ ولم تنبثق الا عن ذاتها ولم تعرف أحوالا غير ذاتها ، ولم تتطور الا بذاتها ، وأصلها كان فيها ٠ فالمادية الماركسية هي ذاتية غير واعية ومدمرة ٠

وبالنسبة لهذه الذات لا يصبح الانسان فرداً بل يصبح حيواناً لانه لا يعرف سوى مادته غير الواعية ٠ والمادة غير الواعية هي الذات ٠ أي أن قوام هذه المادية هي آلية المادة أي الذات ٠ وآلية المادية هي نفي كل مادة لاتتعلق ببوتقتها وبوتقة المادة هنا ، بما أنها ليست مادة تتعرف لاصولها وعلاقتها بغير المفاهيم وبما انها ليست روحية ولا مادية عاقلة ، اذن هي ذات وغير عاقلة ٠

فالماركسية اذن هي حيوانية المادة أي الذات. ليست مادة تتعرف الى أصولها بل هي مادة تعبر عن ذاتها بذاتها بدائرة فارغة تدور حول ذاتها بشكل لا تعرف غير ذاتها وهكذا لايمكن تطويرها الى الاعلى وتحسينها كما تدعي النظرية المادية . لا بل هي مادة قائمة بحد ذاتها تتطلب وجودها وانعكاسها بذاتها وضمنها تقع حوادثها . وانعكاسات هذه المادة هي متطلباتها وليس أفكارها . ومتطلباتها هي الاكل والشرب والقيام بما تتطلبه بشكل ذاتي بحت وبشكل آلي لايعرف لماذا بل انها متطلبات المادة فقط . هذه المتطلبات هي صفة عامة للمجتمع ، لجميع ذوات الحيوانات الاجتماعية !

فالماركسية كباقي النظريات ، حاولت أن تجد حلا لوجود الانسان بطريقتها الخاصة ولم تستطع . لقد وجدت الماركسية أن معظم المفاهيم قد شرحت وفسرت ولم يعد هناك مفهوم سوى المنطق والعقل الذي يستخلص الحقيقة من المفاهيم ويرتبها وينسقها ويضعها بقالب صحيح ، وعندئذ يكون الانسان تفكيره ، يكونه من الافكار والنظريات التي قرأها ودرسها وفكر بها ومن انعكاساته على هذه الافكار المتعددة . لكنها لم تفعل هذا بل عمدت الى نفي جميع المفاهيم والنظريات وحاولت اقامة مفهوم جديد . وهذا المفهوم الذي حاولت تفسيره قد فسر منذ القديم لذلك يجب أن يتحلى بتفسير جديد . **فالمادية الماركسية هي نفي المادية الانسانية وتثبيت المادية غير العاقلة في اطار ذاتها .**

* * *

هكذا نجد أن الماركسية التي استنبطت آراءها وجدالها من الآراء الاخرى عمدت الى تشويه الحقائق ووضعها بشكل يحط من

قيمة الانسان · لقد أقام علماء المادة قواعد لا بأس بها للمادة وعلى أساسها كان الانسان محترماً لكن المادية الماركسية لم تجعل للانسان كياناً وانزلته الى درك الجماد · وحاول علماء المادة أن يعلنوا أن الانسان يستطيع أن يتحكم بالمادة لانه متفوق عليها على الاقل ، لكن الشيوعية جعلت الانسان ـ الفكرة والواقع ـ أسيراً لقيود الذات أي المادة غير الواعية · اذ عندما تتجرد المادة من العقل والاحاسيس والشعور والتفكير العام بأمور عامة تصبح ذاتاً لانها لا تكون سوى آلية المادة وليس المادة ·

لقد نسخت الماركسية النظريات السابقة وحطمتها وجعلت منها مهزلة للانسان · ومن المؤكد أنها مسخت النظريات القديمة وسببت بلبلة الفكر الانساني وفوضويته التي أصبحت صادرة عن فقدانه الوعي لآرائه وقيمه ومفاهيمه · وعندما يفقد الانسان قيمه ومفاهيمه ، حتى ولو كانت تلك القيم والمفاهيم على درجة بسيطة من الفهم ـ يصبح ماركسياً ·· شيوعياً ذاتياً وسلبياً ·

ومن هنا نرى أن الماركسية أخذت مفاهيمها عن النظريات الانسانية التي حاول الطوباويون وغيرهم من فلاسفة الروح وفلاسفة المادة أن يفسروا واقع الوجود ·

لقد تأثرت الماركسية بالآراء الانسانية الايجابية وجعلت منها فلسفة سلبية ، ولكنها اخطأت في تطبيق الواقع في هذه السلبية · فكان ما يلي :

١ ـ نقد ماركس الافكار الروحانية والمادية الروحية وبنى عليها نقده واستنتج قاعدة جديدة ·

٢ ـ لايعتبر نقد ماركس صحيحاً لانه بني على أمور يمكن أن لاتكون صحيحة تماماً ، ونقدها ويمكن أن لا تكون أساس الفكر والحقيقة ٠

٣ ـ اذن لايعتبر نقد ماركس لهذه الافكار وبناؤه عليها قاعدة جديدة أو قانوناً جديداً أو فلسفة صحيحة لانه يمكن أن لا تكون الافكار التي نقدها صحيحة ٠

* * *

لقد مسخت الماركسية هذه النظريات وجعلت منها قزماً يسطر التاريخ بعقله غير الواعي أي الذات ٠

وكيف كان مسخ الماركسية لها ؟ كان مسخها كما أشرت سابقاً بتحوير مفهومها وبجعل نتيجة تناقضها فكرة للتاريخ ٠ اذ أرادت أن تجعل من الذات عنصراً فريداً للانسانية ٠ أرادت أن تجعل من الذات ، التي هي غير واعية ، الوسيلة الوحيدة لتحقيق الانسانية ٠ هذه الذات التي لاتعي سوى حيوانيتها ٠ وهكذا برهنت أنها لم تناقض النظريات التي عملت على مسخها بل ناقضت ذاتها بذاتها اذ حاولت أن ترفع الذات غير الواعية الى الانسانية ٠ وماذا فعلت في هذا المضمار ؟ كانت الانسانية تتقدم رويداً فجاءت الشيوعية وأعادت الانسان الى جموده وحجزته هناك ٠ ومن ذلك الجمود حاولت اطلاقه في عالم ذاته أي مادته ٠ وهكذا سيبقى الانسان محتفظاً بلا وعيه الروحي في ظل الشيوعية ٠

- ٢ -
ـ الهيجلية ـ

علق كثير من شراح الماركسية ونقادها على رجوع ماركس الى هيجل وتقليده له بالديالكتيك . ولكنني في هذه المناسبة سأقول ان الماركسية لم تتأثر بالهيجلية وديالكتيكها الا من ناحية المثال . وقبل أن أبدأ بالبحث سأنظر الى الهيجلية من النواحي التي سأدرسها .

لقد حاول هيجل أن يتفهم الوجود وهدف الحياة وحاول أيضاً أن يجد حلا مرضياً للكون . فتأثر بالفلاسفة القدماء ومن بينهم ارسطو لكنه أخذ يستنبط آراءه من المسيحية . لقد وجد هيجل أن المسيحية أوجدت مفهوماً للحياة بواسطة الانسان اذ أنها جعلته الفكرة العظيمة الممثلة بالمسيح . واذا كان المسيح المثال الاعلى فالانسان هو المثال الاصغر . واذا كان المسيح هو « الكلمة » التامة فالانسان هو صورة « للكلمة » . وهكذا فالانسان هو مثال الحياة واذن هو الفكرة .

لكن هيجل الذي حاول أن يجد تحليلا جديداً ، في نظره طبعاً ، للكون لم يستطع أن يجد الحل المناسب . فبدأ يدرس التاريخ والفلسفة ويجمع من هنا وهناك حتى توصل للنتيجة التالية :

اعتبر هيجل أن التاريخ هو فلسفة البشرية ومفهومها وفيه تتضح جميع المفاهيم ، من مثل ووقائع الى حروب ودمار . وهكذا فالتاريخ هو المعبر عن فكرة الحياة لانه يدل على أعمال الانسان

وأهدافه . اذن هدف الحياة وفكرة الانسان موجودان في التاريخ . فالتاريخ يهدف اذن لفكرة وهذه الفكرة يجب أن تتجسد بمفهوم ، وهذا التجسد موجود في الحضارة أو بمثال الحضارة . ولم يتورع هيجل أن يعتبر نابليون مخلصاً لاوربا وقال انه روح العالم ممتطياً جواده .

لقد شبه هيجل التاريخ بالروح أي بالفكرة ولكنه جسدها بحضارة تمت بصلة كبرى الى خالقها وهذا الخالق هو الانسان . ولكن الحضارة لا توجد الا من فكرة الانسان ، مهما تكن هذه الفكرة مخربة ، شريرة ، فاسدة أو صالحة . على كل حال ، هي فكرة وتعبر في ذات الوقت عن واقع فترة معينة من التاريخ . فالتاريخ اذن سلسلة تتمم بعضها البعض في نظر هيجل ويستمد وجوده من هذا التسلسل المنطقي للحوادث التي تظهر بشكل فكرة أو حضارة يقوم عليها قائم أو يبنيها طاغ أو رجل فيلسوف يحاول أن يجمع شتات الفكر ويضعه في قالب واحد يعبر به عن مفهومه في حقبة للتاريخ . وهذا مافعله زعماء الثورة الفرنسية عندما اعتقدوا أن مبادىء ثورتهم ستكون فكرة عامة وستعمل هذه الفكرة على تقويض العروش وهدم البيوتات الكبيرة وتبديل النظم الاجتماعية . ولكن الواقع قد برهن أن مساوىء الثورة قد وجدت بها وانها زعزعت ذاتها فقط . لم تتزعزع أوربا ولم تتبدل بل تبدلت فرنسا أكثر من غيرها بسبب الذين حملوا مبادىء الثورة وحاولوا تفسيرها كما يريدون . فأين الفكرة في الثورة وأين مفهوم التاريخ وانطلاق الفكرة في ذلك المفهوم وتطبيقه على الحضارة ؟ لم توجد حضارة ، ولم توجد فكرة ، ولم توجد ثورة ، ولم توجد حقيقة على الاطلاق ، بل وجدت مفاهيم عديدة خلقت معها كل تناقض .

وعلى هذا الاساس قام هيجل بفكرته في التاريخ فأوجد سبباً للتاريخ وهدفاً له · وهذا الهدف أوجد أو خلق معه ظروفه الخاصة بالتناقضات وخلق ديالكتيكه · وكيف استطاع هيجل أن يعبر عن فكرته ويبرهن انها حق وجوهر ، بديالكتيكه الذي كان نتيجة حاسمة لمنطق فكرته ؟ وعندما لم يستطع أن يبرهن عن كيفية هذه الفكرة وعن أصولها ومفاهيمها حاول أن يخلق من عنده مفاهيم وأصولا تطابق التطور الذي أوجده · لقد أوجد مفهوماً خيالياً ينطبق فقط على واقع فكرته من ناحية التناقض والنتيجة · وأخيرا أوجد مفهوماً عاماً يجب أن ينطبق على البشر بل يجب أن يكون الحل الوحيد لتطور البشرية وسيرها في طريقها الطبيعي ، نحو الروح الالمانية ·

ولكن أين أخطأ هيجل ؟

قلت ان هيجل استمد نظريته من جذور المسيحية حين قال أن الفكرة موجودة · لقد علم أن الانسان هو فكرة الوجود ولكن تلك الفكرة مستمدة من لاهوت المسيحية وفلسفتها · فعندما خلق الله الانسان جعله فكرة الوجود ، وهكذا فالانسان فكرة الله التي جعلها تتجسد بالانسان كمادة · وهكذا جعل الانسان فكرة الوجود ، وجوهره سينطبق طبعاً على كيانه والفكرة التي لاجلها وجد ومن ورائها خلق ·

لقد نظر هيجل لهذه الفكرة وأخذها كنظرية أساسية له فبدل كل مافيها وأخذ ينظر للاحوال الاجتماعية ليجد طريقة أو اسلوباً منطقياً مادياً يستطيع بواسطته أن يحل مشكلة الوجود · فأوجد طريقته أو أسلوبه ، وبنى هذه الطريقة على الفكرة وان هذه الفكرة

تعمل في منطق التاريخ · ولكن كيف يستطيع البرهان على منطقه هذا الا برجوعه للتناقضات التي تمت في التاريخ وللنتائج الحتمية التي توصل اليها البشر ! ولكن بما أن التاريخ يعبر عن سيرة البشر وهدفهم لذلك يجب أن يشكل فكرة عامة للبشرية ، فكرة مثالية وأخلاقية ·

ولكن ماهو التاريخ ؟ اذا استطعنا أن نجد مدلولا للتاريخ فيكون باستطاعة الانسان أن يحل لغز وجوده وكينونته · ولكن بما أن التاريخ هو النظرة السطحية للامور والتطبيق الاجتماعي المتقلب لمفاهيم البشر ، لذلك فهو فكرة تناقض التناقض البشري الحقيقي الذي يجب أن يعبر عن الفكرة أو الانسان · فالانسان ، بما أنه فكرة ، اذن هو واقع الفكرة وجوهرها ويعمل لتكميل الفكرة · ولكن الانسان لم يستطع أبداً أن يدرك جوهره لذلك فقد اخطأ في تعليل الفكرة وتحقيقها · وهكذا فقد فشل في تحقيق نفسه · وهكذا فتناقض المفاهيم التي خلقها الانسان من جراء عدم فهمه لنفسه أوجد ماندعوه بالتاريخ · **وهكذا فالتاريخ هو نفي التاريخ الانساني ·**

* * *

لم تكن نظرية هيجل في المثال نظرية حقيقية لان أصولها قائمة على التناقض البارز فيها · وهذا التناقض أوجد حالة خاصة متعلقة بالتاريخ البشري تعمل على تحقيق ذات التاريخ · وهكذا فقد وصلنا للتاريخ المادي الذي لا يعبر الا عن قشور الفكرة الاصلية للتاريخ · هذا التاريخ الذي يقوم على ذاته وبأنه فكرته وكفى · ولكن كيف يمكن أن يكون نابليون أوروبسيير فكرة الحضارة أو روحها أو روح العالم ؟ أليس هذا دليلا على الصراع والتناقض القائم على فهم الروحية

الالمانية التي تعبر عن انطلاق الفكرة الالمانية في الحضارة الالمانية التي استمرت دوماً عبر التاريخ ولم تتبدل ؟

يكفي هذا للبرهان ؟ اذ نعلم أن الفكرة لم تكن جوهراً لانسان ولم تكن جوهراً لحضارة معينة أراد هيجل أن يوضحها ولو أنه حاول أن يبرر قوله بتفسير وتوضيح الحضارة الالمانية فقط أو حضارة أوروبا لكان موفقاً أكثر من ناحية النظرة المادية لامور وقضايا الحضارة . ولم تكن الفكرة انطلاقاً في الفكر الانساني ، ولم تكن امتدادا لفكرة قديمة حاول هيجل تبسيطها ، بل كانت الهيجلية ، الفكرة التي أرادها هيجل . لقد كانت هيجل ، فكرة هيجل ، وجود هيجل ، وجود الفكرة التي تصدر عن هيجل ، لقد كانت هيجل الفكرة ، وتناقض هيجل مع الغير ، وكانت نتيجة متممة للفكرة وهي مايعبر عنه هيجل في آخر الامر بالديالكتيك . وهكذا لم يستطع هيجل أن يعرف واقعه ، واقع أوروبيته وتطبيق الفكر الانساني على مجرد وهم اعتقده بأنه حقيقة قائمة . ولذلك نرى أن هيجل يعد من طليعة المفكرين المبدعين لانه أوجد اسلوباً جديداً . ولقد اعتبره الناس والمفكرون من بعده أنه قد وضع طريقة جديدة للفكر . وذلك لم يكن الا نتيجة لبلبلة فكر هيجل من ناحية الفكرة . نعم ، لقد أوجد هيجل الفكرة وعلم أنها موجودة في بطون الفلسفة المسيحية ولكنه لم يستطع أن يقرها الا لنفسه ، انه مبدعها ، انه خالقها . انه الوحيد الذي سيطبقها على حقيقة الوجود والانسان . ولكن الفكرة التي أخذها هيجل عن المسيحية والتي كانت قوة دافعة في عقله لم تكن الفكرة التي عبر عنها بماديته والتي حاول أن يجدفيها حلا للوجود .

لقد كانت المسيحية واضحة عندما قالت أن الانسان هو جوهر

الوجود وبرهنت بالمادة . لقد كانت واضحة أشد الوضوح . لكن هيجل الذي وعى الفكرة والمثال حاول أن يطبقها على صعيد عالمي ، فأوجد فكرة مخلصة للبشر وللتاريخ ولكنه أقامها على براهين غير حقيقية . لقد درس التاريخ ، هذه الكلمة التي لا تعبر عن حقيقة ، وحاول أن يطبق الفكرة على تلك الدراسة المتناقضة . وعندما قام هيجل بهذه الدراسة وجد أنه لابد من التناقض ، ولكي لا يبرهن عن تناقضه حاول أن يجد التناقض خارج تفكيره وتحليله وأن يطبق فكرته على ذاك التناقض القائم في التاريخ . وعندئذ اعتقد أنه يقوم بدور أحسن . جعل التناقض خارج فكرته وجعل فكرته الفكرة المخلصة للتناقض . عندئذ وقع هيجل في التناقض وبرهنت نظرته على خطأها الجسيم ، اذ طالما أن التناقض واقع لا محالة في التاريخ ، فان ذات التناقض يجب أن يكون ميزات نظريته وطريقته طالما انها الحل . وطالما ان التناقض حاصل فان نظريته لم تكن وسيلة لابعاد التناقض وتحطيمه والقضاء عليه وايجاد طريقة فضلى . اذ كيف يمكن أن يؤدي التناقض الى فكرة ؟ فاذا قلنا ان الليل يناقض النهار ، واذا قلنا ان النهار هو الفكرة والليل هو تناقض الفكرة ، فالنتيجة الوحيدة التي نقدر أن نستنبطها من هذا هو : الليل والنهار لانهما امتداد لبعضهما وليس هما متناقضين . اذ لا يمكن أن نحصل على نتيجة من التناقض . وطالما أن التاريخ تناقض ، فلا يوجد شيء يناقضه الا الفكرة المطلقة التي لا تقيم للتاريخ وزناً لان التاريخ الحقيقي ليس تاريخ أعمال بشرية بل تاريخ الانسان . والانسانية هي تحقيق الانسان وليست تحقيق أعمال البشرية البربرية التي لم تكن سوى جموح جماعات نحو القتال والخروج عن الوعي والوجدان.

لذلك نرى أن تفكير هيجل لم يكن نتيجة لما اسماه فكرة أو

تاريخاً بل كان تناقضاً اسماه ديالكتيكاً · وذلك لانه لم يوجد طريقته للقضاء على تناقض التاريخ بل كل مافعله هو تثبيت تناقض التاريخ وعدم وجود حقيقة فيه · فكيف اذن يمكن أن تكون طريقة هيجل هي الحل لهذا التناقض طالما انها مضمونة بالتناقض وهي حصيلة الفوضى القائمة في التاريخ ؟

ان وعي الانسانية وفكرها هو وعي الانسان لنفسه ولذاته ، وليس هو مجرد تحليل الانسان لامور تاريخية غامضة لايعرف أصولها وجوهرها · وطريقة هيجل في تحليل التاريخ وجد في الديالكتيك الذي برهن عن تناقض في ذاته · يقيم هيجل في ديالكتيكه وزناً لديالكتيك جديد · وطالما أن ديالكتيكاً جديداً يقوم على ديالكتيكه ، لذلك فديالكتيكه وفكرته خاضعتان للتناقض ·

* * *

أين اختلاف هيجل عن المسيحية ؟

تقول المسيحية بفكرة واحدة عبر العصور والاجيال ، فكرة أبدية لا يتبدل جوهرها لانه جوهر أزلي · وهكذا لا يوجد مجال للتناقض ، لانها فكرة واحدة عبر التاريخ ، لكن هيجل أراد أن يوجد تلك الفكرة وجعلها نتيجة للصراع القائم في التاريخ أي للتناقض القائم فيه · وأراد وأن يوجد هدفاً أي فكرة من التناقض · ولم يستطع أن يبرهن على هذه الفكرة لانها ليست قائمة بذاتها فاستعمل الديالكتيك · لقد اعتمد على الديالكتيك لاظهار حقيقة وهكذا اخطأ لان تلك الفكرة أو الحقيقة ليست من مصدر واحد وجوهر واحد ·

* * *

كيف أدى ديالكتيك هيجل الى خلق ديالكتيك ماركس ؟

حاول ماركس أن يجد حلا للوجود كما فعل الفلاسفة السابقون. فبينما تعلق بعضهم بالقانون الطبيعي وجعلوه قياساً لبعض المفاهيم الاجتماعية حاول ماركس أن يخلق حلا مناسباً يكون بمثابة طريقة جديدة . لقد علم ماركس أن الفلاسفة أخذوا عن بعضهم وكادت نظرياتهم أن تتقارب . فلم يستطع أن يكون مبدعاً مالم يكن خالقاً جديداً لنظرية جديدة تعمل على حل لغز الوجود وحياة الانسان . لقد كان ذكياً جداً اذ أدرك أن طريقة هيجل كانت أقرب الطرق لتأدية الواجب وخلق ذاك الشي الجديد .

لقد قلت أن هيجل أخذ عن النظريات وأخصها الفلسفة المسيحية وجعل هدفه ايجاد طريقة جديدة للفكر واستنباط وسيلة عظمى لتحقيق فكره في المجال الانساني . وقلت كيف أن هيجل اخطأ لدى تفكيره بأخذ المثال والفكرة كانموذج أو كأسلوب لانه أراد أن يطبق فكرته ومثاله على غرار الافكار أو بالاحرى على غرار وسيلته الخاصة ، فجعل للفكرة تناقضاً لكي يصل بالنتيجة الى حل رمزي وذاك لانه لا يستطيع أن يوجد الفكرة التي أرادها الا اذا حاول البرهان على وجود فكرة مناقضة لها .

وهذا ما فعله كارل ماركس . لقد اتخذ طريقة هيجل في التحليل لكنه لم يعتمد عليها في اعطاء النتيجة اذ لم يطبق نفس المقاييس والمفاهيم . فبينما اعتمد هيجل على الفكرة كمطلق اعتمد ماركس على الفكرة كمادة ، كشيء موجود ولايمكن وجود سواها . وبينما اعتمد هيجل طريقته في البرهان اعتمد ماركس على نفس الطريقة لكن الفرق

هـو زيادة المقاييس المادية · فأدخل المادة في صلب الموضوع وطبق عليها كيفياته وحيثياته ·

لم تكن نظرية ماركس صحيحة لانه أراد أن يوجد حلا وهدفاً للوجود·فبينما أوجد هيجل الحل بفكرته أوجده ماركس بشيوعيته· لقد أعلن أن نتيجة التطور والحياة هو الشيوعية · أي أن الشيوعية هي المثال أو الفكرة عند ماركس · الحياة والوجود هما الشيوعية أي أن الشيوعية هي فكرة الوجود · ولكن كيف توصل للبرهان ؟

لقد علم ماركس انـــه لا يستطيع أن يبرهن عـلى نظريته الا بالاعتماد على مفاهيم أخرى ، وأقرب المفاهيم كانت طريقة هيجل في المثال · وهكذا اتخذ ماركس اسلوب هيجل المطلق والمشوش ، وجعل منه اسلوباً مادياً مضطرباً قلقاً لايعبر عن حقيقته لكنه يعمل لاظهار واقع الذات أي شيء ملموس · وأصبحت الشيوعية فكرة ماركس والمثال الاساسي للحياة ·

لقد قال هيجل أن الحياة مثال أو فكرة وجسد تلك الفكرة بما اعطاه من أمثلة تاريخية غامضة · ولكن اتباع هيجل ظلوا يعانون ويقاومون من مرارة الغموض لان معلمهم لم يستطع أن يدلي بالحقيقة كما هي · ولذلك نظروا الى الفكرة بمفاهيم مختلفةولو كانوا يحاولون أن يتبعوا اسلوباً واحداً ، ولم يقبل الناس نظرية واسلوب هيجل لدرجة كبيرة لانه بقي يبحث في فكرة عظيمة ـ المسيحية ـ بأسلوبه الغامض ، ووضع الفكرة في نطاق المطلق لكي تبقى ضمن اسلوبه ويقال انها من صنع هيجل · فيكون هيجل ، في نظر الناس ، صاحب نظرية جديدة وطريقة جديدة ·

لكن ماركس لم يعتمد على المطلق بل اعتمد عى ماديته واعتمد لهذه المادية ديالكتيكه الخاص الذي هو اشبه مايكون بالجثة الميتة التي اذ يراها المرء يعتقد انها حقيقة لانها أمامه ، رغم أن لا حياة بها · ولكي يبرهن عليها قلب المفهوم رأسا على عقب وأسماه بديالكتيك المادة ـ هذا الاسلوب مادي بحت ·

التاريخ اذن في نظر ماركس هو تسلسل لحوادث منطقية مادية يجب أن تؤدي الى تحقيق فكرة · التاريخ يسير من العبودية للرق للاقطاع للرأسمالية للاشتراكية ··· وأخيرا للشيوعية · فالشيوعية اذن هي نبراس العالـم ، هي هدفـه « الواعي » المادي ، هي فكرة الوجود · الوجود كله يسير لتحقيق هذه الفكرة · فالشيوعية اذن هي فكرة ماركس للوجود ·

ولكن كيف يستطيع ماركس أن يبرهن عليها ؟ لقد أوجد أو بالاحرى فكر بتناقضات الفلاسفة الروحيين والماديين فخذلهم جميعاً وقال بالمادية الماركسية التي تعرف فقط « بمادية ماركس » · ومادية ماركس هذه يجب ن تكون واضحة · هي نتيجة الصراع القائم بين الروحانية التي توجد لوحدها (حسب رأيه) وبين المادية التي لاتقوم لحالها كما يدعي الفلاسفة الماديون المخطئون ، ولذلك لا وجود لمادية كهذه (حسب رأيه) تقوم على نتيجة الصراع بين الماديين والروحيين التي ليست نتيجة للواقع المادي الروحي ، وهكـذا لاتوجد نتيجة حاسمة حسب رأيه · وهكذا جعل المفاهيم أن تتصارع وأوجد ماديته التي هي نور العالم كما يعتقد · وبناء على هذه المادية يجب أن يبني « فكرته المخلصة » للوجود · ويجب أن تكون أفكاره منسجمة مع

فكرته الاولى المادية لكي يقال ان ماركس اوجد نظرية تامة ـ نظرية عملية ـ ٠

لكن ، كما برهنت ، لم تكن ماديته حقيقية ولم تبرهن على شيء الا على زيادة التناقضات في الفكر الانساني ولكي يمضي ماركس قدماً مبرهناً على مقدرته في الانسجام بين كل أجزاء تفكيره أوجد الديالكتيك وطبق عليه ماديته التي هي نتيجة لتناقض النظريات السابقة :

١ ـ أصبحت ماديته هي المادة الاولية لموضوعه أو لفكرته أو لاسلوبه وعليها يجب أن يعتمد ٠

٢ ـ لكي يطبق ماديته ويبرهن عليها يجب أن يستعمل الديالكتيك للبرهان على صحة قوله ٠ وكيف تم ذلك ؟

لقد نظر الى الحياة انهاتسير نحو فكرة لكي تعبر عنها ٠ اذن الوجود يعبر عن فكرة واحدة هي الشيوعية ٠ أما الاطوار والعصور والحقب والحضارات وحقول الفكر التي مر تبها لم تكن أبدا لتشير الى الشيوعية كنتيجة حاسمة لولا أن شخصا عظيما كماركس قدر أن يحللها ويدرسها ويتفهمها ويظهر نتائجها ٠ هذهالاطوار كالاقطاعية والرأسمالية والاشتراكية هي أطوار صدرت وانبثقت عن تناقض جوهرها ٠ لذلك يجب أن تتصارع وتميت الواحدة الاخرى وتؤدي الى مفهوم ثابت واحد ٠ فاذا انتقل الرق الى الاقطاع ، والاقطاع بدوره الى الرأسمالية وهذه بدورها لمرحلة أخرى تدعى الاشتراكية ، اذن يجب أن تكون الشيوعية هي النتيجة الحاسمة ، اذن هي فكرة العالم ٠

ولكن أين اخطأ ماركس ؟

١ ـ لم يخطىء ماركس فقط باعتماده على هيجل وعلى التناقضات التي لم تكن سوى تناقضات لامعنى لها ٠

٢ ـ لم يخطىء ماركس فقط بخلق فكرة من التناقضات التي ان دلت على شيء لا تدل الا على صراع عنيف لقوى غير عاقلة لان الصراع وبالتالي التناقض من مميزات عدم وجود حقيقة ٠

٣ ـ لم يخطىء ماركس فقط باعتماده على تجزئة الوجود لعناصر وسكبها في قالب واضح لكي تشكل وحدة أو فكرة مادية واحدة لاغير٠

٤ ـ لم يخطىء ماركس فقط في ايجاد قانون واحد لتطور الازمات والحياة الانسانية المادية وجعل هذا القانون المفهوم الازلي للوجود أو الفكرة الدائمة للانسان ٠

٥ ـ لم يخطىء ماركس بكل هذا بل اخطأ في نظرته للانسان ولفكرة الوجود ٠

والآن لننظر الى تفسير ماذكرته ٠

١ ـ عندما اعتمد ماركس على هيجل يعني انه اعتمد على اخطاء كثيرة ـ ذكرتها سابقا ـ ويكون قد اعتمد على نظرة هيجل المخطئة والمحورة للمسيحية ٠ وهكذا فقـــد اخطأ ماركس وكانت نتيجته كنتيجة الانسان الذي لا يرى أمامه الا الظلام لضعف بصره فيقيس جميع الاشياء بالنسبة لما فهمه وأدركه ورآه في الظلمة ٠ لقـد اخطأ هيجل في تفسيره لذلك يجب أن يخطىء ماركس ٠

٢ ـ لقد دلت نظرية هيجل واسلوبه على أنه اعتمد على التناقضات

القائمة في الحياة والصادرة عن مادية الانسان ولا وعيه وليس عن حقيقته · وهكذا كان اعتماد ماركس على التناقضات نتيجة اعتماده على تناقض التناقضات · اذ عندما تقدم لي مسألة خاطئة وأحاول أن أحلها ، واذا حرفتها وتظاهرت بوجود الحل فلا يمكن أن تكون النتيجة سوى اعتماد على قاعدة خاطئة ولا تكون نتيجتي سوى الاعتقاد بالصواب ·· لكن صواب الخطأ · وهكذا قامت نظرية ماركس على التناقض ·

٣ ـ لقد اعتمد ماركس على تجزئة العالم الى أطوار وعصور وحضارات · ولم تكن هذه الاطوار تعبر أبدا عن حقيقة طالما أن حقيقة الانسان لم تتبدل · فان كان الرق موجوداً منذ القديم فان وجوده في الوقت الحاضر يشكل شكلا آخر للرق · وان كانت الاقطاعية موجودة منذ القديم فوجودها اليوم لايشكل سوى شكل آخر للاقطاعية القديمة · فاعتماد هذه الاصول للوصول الى حقيقة لا يؤدي الى حقيقة لانها ليست حقيقة ولان هذه الاشكال لا تبرهن على وجودها طالما أن الناس كانوا يقومون بأعمالهم بأسلوب يساير عصرهم · فاذا كانت السيدات تلبسن القبعات منذ عهد بعيد بأسلوب مختلف ، فلا يدل هذا على أن السيدات اذ يلبسن قبعات جديدة قد خذلن ذلك العهد · تبقى السيدات وتبقى معهن القبعات ولا تتغير ، لا القبعات ولا السيدات ·

وهكذا فالتناقضات الموجودة في فكر ماركس ومحاولة الاعتماد عليها كانت عملا خطأ ونتيجة حاسمة لتناقض جديد يقوم به · واذا قلنا بشيء أو اعترفنا لماركس بنوع من المنطق ، فان هذا المنطق لا يكون الا بتركيزه القوي واستنتاجه القوي المتسلسل لاخطاء

ومساوىء البشرية وتناقضها اللاواعي حتى تكاد تعتقد انها حقيقة واقعية ٠

٤ ـ من هذه التناقضات والعوامل المتضاربة حاول ماركس أن يوجد قانونا واحداً ٠ من الاقطاع الذي لم تكن له حدود ومفاهيم ، من هذه البربرية التي لم تعترف بقيمة الانسان ولا بجوهره ، من الرق الذي هو تحقير للنفس البشرية ، من الرأسمالية التي لانعرف ماهي بالضبط ٠٠ من كل الاطوار التي مرت بها البشريةالتي لم تكن سوى تحقير عظيم للانسان ٠٠ أخذ ماركس قانونه الفريد من نوعه ٠٠ استنبطه من الذل ، من عذاب الانسان ، من شقاء البشرية ، من الاحتقار للانسان وصراعه مع قيمه التي خلقها ٠٠ اعتمد ماركس على هذا كله وأوجد قانوناً جديداً قائماً على تحقير الانسان ٠ لم يستنبط آراءه من صفاء فكر الانسان ، من ندائه العميق للحرية وللحق ، من اشتياقه لمعرفة الحقيقة ، من اندفاعه لمعرفة ماهو وراء ذاته ونفسه ٠ كلا ، لم يعتمد ماركس على أمل الانسان الوحيد وهو التحرر من عبودية نفسه ٠ ان الانسانية لم تتبدل ٠ فالرق هو استعباد الانسان لنفسه ، استعباد الذات للنفس ٠ والاقطاعية لم تكن الا تحطيم الانسان لمقدراته وسيره في الطرق المظلمة ٠ وجميع الاحوال الاجتماعية والتطورات العامة في الحياة لم تكن سوى الصراع العميق في نفس الانسان ٠ هكذا اعتمد ماركس على الجانب المظلم من الانسان ، على تحقيره لنفسه ولحقيقته ٠ فأوجد قانونا واحدا ٠٠ هي الشيوعية ٠ فاذا كانت تلك المظاهر مخزية ومخجلة فكيف اذن تكون النتيجة ؟٠٠

٥ ـ والخطأ الاكبر عند ماركس هو نظرته للانسان ٠ لم ينظر ماركس للانسان كفكرة ولم يحاول أن يفهمه ، بل فهم كل شيء صادر

عن ذاته وماديته • فرأى شرور المادة ومساوئها وانحطاطها • وعندئذ حاول أن يجعلها الجوهر الوحيد ويطورها • اعتقد ان هـذه المادة الغاشمة يجب أن تستنير وان تنطلق ••• انطلاقها الذي سيمر في حقبات سيصل أخيرا لنتيجة واحدة • فسـير المادة اذن هو قانون طبيعي « قانون ماركس » أي هدف واحد أي الشيوعية • فماركس لم يعتمد على الانسان بل اعتمد على ذاتية الانسان الصادرة عن جهله ، لانه لو وعى الانسان حقيقته لما قام بأي عمل مخز أو شرير •

لا وجود للانسان عند ماركس أي لا وجود لجوهره ، بل توجد المادة وانطباق تلك المادة على سيرها الطبيعي أي الديالكتيك الـذي اعتمده ماركس • وهكذا تكون النتيجة ان ماركس لـم يوجد شيئاً قائماً على حقيقته •

ولكي لا يكتنف الغموض ما سيأتي من بحث أعيد وأكرر ان مادية ماركس كما نظر لها حاول أن يطبقها على ديالكتيكه •

لقد قامت ماديته على التناقضات وقام ديالكتيكه على التناقضات أيضا • وليس هذا بل انه طبق عـلى ديالكتيكه الـذي هو نتيجة لتناقضات ماديته التي هي بدورها نتيجة لتناقضات فيكون مايلي :

١ ـ مادية ماركس القائمة على التناقض •

٢ ـ ديالكتيك ماركس القائم على التناقض •
النتيجـة

٣ ـ طريقة أو اسلوب ماركس القائم عـلى تناقض مفهومين عند الانسان : الروح والمادة •

وبما أن شراح وعلماء الروح لم يفسروا الروح تفسيرا جيدا ،

وبما أن علماء المادة لم يفسروا المادة تفسيرا جيدا ، وبما أن علماء الروح والمادة لم يفسروا مضمون أفكارهم جيدا ، لذلك نجد أن ماركس أوجد مادة ولكنها قائمة على تفكيره ولا تعمل الا به . وقد بنى ماديته على التناقضات القائمة في تلك المفاهيم التي اعتمدها الفلاسفة الاقدمون . فيكون قد أخذ منهم ماديته التي هي سرقته الاولى . وأخذ منهم برهانه لتلك المادية وتكون هذه سرقته الثانية . وعند هذا نجد أن ماركس قام بطريقته واعتمد عليها باسلوب جديد مخيف لكنه مبطن بالالغاز والاحاجي التي لم يستطع هو أو غيره توضيحها وشرحها بكاملها .

- ٣ -
اليهودية

تقوم اليهودية على مبدأ « النظرة المخلصية » . هذا المبدأ الذي يفترض وجود فكرة تعمل لخلاص البشر أو بالاحرى الجنس البشري . وهكذا نرى أن اليهودية لم تختلف مطلقا عن باقي المفاهيم المادية .

ان فكرة خلاص البشر تعد فكرة عظيمة لو لم يقصد منها الصراع الاخلاقي القائم والذي تعتمد عليه اليهودية . ويمكنني الابتداء بالنقد من وجهة موقف اليهودية من الكون .

لا أريد أن أقول أن اليهودية كانت من الشعوب الاولى التي آمنت بالله ، اذ انها آمنت به على طريقتها الخاصة ، وجعلت من الله وسيلة في يدها تعمل به ما تشاء . واذا كان المسيح قد أتى من اليهود فليس لانه أراد أن يكون منهم بل لانه أراد أن يعلمهم درسا عظيما وحقيقيا عن الله . أراد المسيح أن يعلم اليهود الطريق المستقيم .

وأراد أن يفهمهم مقدرة الله وعظمته وجلالته · وهكذا يجب أن يكون اليهود شعبا ضالا يريدون أن يخلقوا العالم الذي يريدونه والمفاهيم التي يرونها نافعة بالنسبة لهم ·

وهكذا قامت اليهودية على فكرة وجود فهم مطلق للوجود ينبثق عنهم ، وهكذا كونوا هذه الفكرة وجعلوا أنفسهم المثال لها والتجسيد الحي لخلاص بني البشر · ولكني قلت أن اليهودية برهنت على خطأها لمجرد اعتقادها بأنها فكرة مخلصة · ولم تخرج اليهودية عن كونها فكرة كهذه ، كفكرة هيجل أو كفكرة الشيوعية · كيف قامت هذه الفكرة وماهي أسسها ؟

قامت هذه الفكرة عند اليهود واعتقدوا أنهم نبراس العالم أي فكرته وتجسيده ، أما الاسس التي قامت عليها هذه الفكرة تعد فاسدة لانها قائمة على التناقضات · وذلك لان اليهودية لم تعد قائمة على مفهوم علوي ، ديني أو سماوي بل قامت على الامور الدنيوية لانها مفهوم مادي بحت · وبما أنها لا تفتش الا عن ماديتها لذلك تعبر عن الذات · وهنا تلتقي اليهودية بالماركسية ·

وماهي الذات بالنسبة لليهودية ؟

المادية اليهودية هي انعتاتها من كل مفهوم آخر وتعلقها بمفهومها الذي لايمكن أن يوجد سواه · وهكذا تعد اليهودية ذاتاً مادية لانها لاتعتبر سوى وجودها خلاصاً للبشرية · وبما أن هذه الذات لا تعقل غير ذاتها فهي اذن قائمة على تناقضات خارجية وداخلية · فالتناقض اذن من اسس اليهودية · ويظهر هذا التناقض في الصراع الخارجي ضد كل من أخضعها من ملوك وهذا هو الحقد اليهودي القائم ضد

العالم ، ويظهر أيضا في الصراع الداخلي أي في معتقدات اليهود أنهم يعملون لخلاص العالم بطرقهم الخاصة ٠

لقد قلت ان اليهودية هي تجسيد المفاهيم بالذات وهي أيضا تجسيد المادية بالتناقضات ٠ لقد وجدت هذه النزعة ضمن اطار من المتناقضات الهائلة فلم تستطيع أن تجد نفسها وحقيقتها ٠ لقد كان اليهود معرضين دوما للاسر والتشتيت فأضاعوا قيمهم وظلوا متعلقين بمثولوجيتهم التي ضاعت بين تناقضاتهم العديدة ٠ وهكذا لم تبقى عندهم سوى النقمة والغضب ٠ وحاولت اليهودية دائما أن تقضي على جميع الحضارات الاخرى التي تسلطت عليها وهكذا بدأت تفتش عن نفسها ولكنها لم تجد لها أثرا ٠ وبقيت بعدئذ متعلقة بذاتها لكي تحقق شيئا من وجودها كفكرة ولم تبقى معها سوى الوسائل المادية التي تعبر عن الذات ٠ لقد أوجدت فكرتها مرة أخرى كيهودية ولكنها أضاعت حقيقتها ضمن اطار الصعوبات الاخرى التي اعترضتها ، لذلك خلقت فكرة ذاتها واعتمدت على كل وسيلة مادية لتحقق تلك الذات ٠

والتناقضات المستمرة التي وجدت بها ، من سبي وأسر وصعوبات وانتصار حضارات أخرى جعلتها تعتقد بأنها لاتزال حية بين تراث الامم الاخرى ٠ أما اكبر تناقض قائم فيها هو ذاك التناقض الداخلي الذي يحطم كل قيمة فيها ٠ اليهودية تناقض ذاتها كدين وكواقع ٠

تناقض اليهودية ذاتها كدين لانها لم تعد تعرف سوى انحرافها عن فكرة سابقة ٠ لقد كانت تفكر باله فأصبحت الآن تفكر به كاله يهودي بحت ، وكانت تفكر بنوع من العبادة فأصبحت تفكر الآن باقامة عبادة جديدة تتمشى وفكرتها ٠ وهذا كله نتيجة لعدم تفهمها

للدين . لقد غضب الله على اليهود ولعنهم . وهكذا تشتتوا وحملوا تلك النتيجة اللعينة التي ترافق تاريخ البشرية . لذلك وجدوا انهم بلا اله وحاولوا أن يخلقوه . لقد خلقوا الههم وأوجدوه بفكرهم وبايمانهم . وهكذا نجد أن التناقض هو أساس اضطرابهم الخلقي والديني ولذلك يدأبون في الوقت الحاضر أن يبنوا مجدهم على فكرتهم الدينية القديمة . وهذا ما جعلهم يتعلقون بالذات لاظهار حقيقة لا وجود لها .

هذا هو التناقض الداخلي . أما التناقض الواقعي فهو انهم عبارة عن جماعة يفتشون عن التناقضات واثارتها لكي يحققوا ذاتهم بشتى الاساليب . لم يستطيعوا طوال حياتهم وتاريخهم أن يحققوا فكرة قوميتهم أو وطنهم ولذلك نظروا للحياة بحقد وضغينة وأصبح مركب النقص رائدهم الوحيد . لقد كرهوا جميع البشر وعملوا دوما على تقويض دعائم السلام لانهم لم يستطيعوا أن يهنأوا بالسلام في داخلهم ولم يجدوا وطنا يأوون اليه . وهكذا وجدوا أن خلاصهم وتحقيق أهدافهم لايكون الا بتحطيم غيرهم وابادة كل القيم والمفاهيم التي يدين بها العالم . لقد أوجدوا الصراع العنيف بين الناس اذ كانوا ولا يزالون أرباب الاشتراكية وأرباب الرأسمالية . وهم سائرون الى تحطيم هذين المبدأين وسيعملون على زيادة الصراع القائم بين الدول وبين الانظمة المختلفة .

* * *

نجد اذن ان فكرة اليهود المخلصية أتت عن انتقادهم الديني بأنهم شعب الله المختار . لقد لعنهم الله ولذلك فهم يحاولون دوما أن يعيدوا ملكهم الضائع واورشليم ، مدينتهم المفضلة . لقد تجسمت عندهم

الذات وأصبحت مادتهم أساس كل شيء . لقد اختفت روحهم وانعدمت في ذاتهم ومادتهم . وهكذا أصبحوا ذاتا تدأب لتحقيق امكانياتهم على حسابها وعلى حساب غيرها . ولم يبق لليهود دين ولم يبق لهم تاريخ لا بل ان تاريخهم كان سلسلة من الحروب التي كانوا يؤخذون للاسر كنتيجة . لقد تجسدت عقيدتهم بذاتهم المادية ، وهاهم يعملون لتحقيق ما ضاع منهم وماهو في الاصل خيال ووهم .

نجد اذن أن اليهود يقيمون مفهومهم على ذاتهم ونكرانهم لغيرهم . وهكذا يعتقدون انهم ذات الوجود . ولايمكن أن تصدر هذه الفكرة عن الوعي ، وكل ماهو غير واع يكون بحد ذاته تناقضا مع الغير . وهكذا ففكرة اليهودية قائمة على التناقض الذي يحاولون خلقه في العالم . فهم يريدون أن تتصارع المبادىء لكي يحطموا كل قيمة أخلاقية موجودة . ويحاولون أن يضعوا المبادىء وجها لوجه لكي تصطدم أو تتصارع وتلاقي حتفها ولن يبقى عندئذ أحد سواهم . ويحاولون أن يقضوا على الحضارات والمدنيات لكي تبقى حضارتهم المزعومة وليعملوا على تفريق شمل الحقيقة الانسانية .

وهكذا تقوم اليهودية على التناقض . وكل مايقوم على التناقض لا يكون حقيقة بحد ذاته . والتناقض الكائن في الوجود ، ان كان حقا أو لم يكن ، لا يعبر عن جوهر الوجود ولا عن جوهر الانسان . واليهودية لاتعتمد على جوهر معين ، فليس لها موقف ثابت من الانسان ولا من الله ولا من الوجود ولا من الواقع ولا من غيرهم ، بل يعملون على فرض سيطرتهم على جميع هذه المفاهيم ويعملون على تغطيتها بكل ما أوتوا من مقدرة مادية .

والتناقض القائم في المفاهيم والمبادىء التي يفترضونها لايعني

أبدا أن لها جوهرا أو انها ترتكز على حقيقة · وهكذا تكون اليهودية فكرة مخلصية على حساب غيرها · لقد رأت أن لا حقيقة لها ولا وجود لها ، ولا قيمة أو مفهوما لها ولهذا دأبت على أن تحطم كل ماهو موجود وأقامت اطارا جديدا للعالم يعبر عنه بالفكر والوجود اليهودي ·

وستبقى اليهودية ضائعة طالما أنها لاتجد نفسها وحقيقتها · لقد أضاعت حقيقتها عندما ثارت على المسيح · لقد أضاعت روحها أي حقيقتها وتعلقت بذاتها كمفهوم ، وظلت تعتقد انها لا تزال شعب الله المختار · وهكذا اعتنقت مبدأ الذات ·

ولايمكن لها أن تعود الى حقيقتها الا اذا عادت الى روحها وحقيقتها·

وطالما أن الشيوعية امتداد لليهودية بشكل ما ، لذلك أضاعت روحها وحقيقتها ·

ان المقارنة ظاهرة بين اليهودية والماركسية · فكما أن اليهودية تقوم على الصراع القائم والتناقض بين المفاهيم وتحاول تحطيمها واقامة صراع دائم لا ينتهي بينها ، هكذا تحاول الماركسية أن تقيم صراعاً بين المفاهيم العالمية عن طريق الثورة · وتظن الشيوعية أنها ستخلص العالم عن شروره ومفاسده وستقيم عالماً جديداً ومفهوماً جديداً للحياة ان هي عملت على تقويض كل المفاهيم الاخرى · وهذا تماماً ماتفعله اليهودية · ويكون وجه الشبه تقريباً بين الاثنتين :

١ ـ تقوم اليهودية على التناقض وهكذا تقوم الماركسية ·

٢ ـ تقوم اليهودية على خلق صراع بين المفاهيم وتحطيم كل قيمة للمبادىء التي تنافيها · وهكذا تقوم الماركسية على تحطيم المفاهيم الاخرى اذ انها تدأب على أن تهدم كل بناء اقامته الحضارات ·

٣ ـ تعد اليهودية كل مبدأ ليس منها زائلا ولا قيمة لـــه . وهكذا تعد الماركسية كل فكرة غير الشيوعية فكرة غير موجودة .

٤ ـ تحاول اليهودية اقامة عالم جديد قائم على فكرة المخلصية اليهودية التي تكون السبيل الوحيد لهذا العالم . وتحاول الماركسية خلق عالم جديد قائم على الثورة أي على تحطيم كل حقيقة خارجة عن ذاتهـــا .

٥ ـ تحاول اليهودية السيطرة على العالم بكل ما أوتيت من قوة ودهاء وحيلة وخداع . وتحاول الشيوعية السيطرة على العالم بكل ماأوتيت من قوة ودهاء ومكر وخداع ووسائل تكفل لها النجاح .

٦ ـ تعتمد اليهودية عـلى مادتها بعد أن فقدت روحها وهكـذا تعتمد على مادتها . وبالتالي قضت اليهودية على الروح وأخضعت لها كل مفاهيم المادية الملتوية ، وهذا مافعلته الماركسية .

٧ ـ لم تكن اليهودية دينا بل كانت مهيئة لدين . لكنها نقضت مبادئها التي اعترفت بهذا الدين ، وهكذا قضت على نفسها كوضع قائم يهيىء لمجيء دين . وهكذا تعتبر عملا من أعمال الذات . وهذا ماتفعله الماركسية لانها تعتبر ذاتها انهـا تهيىء للفردوس لا تحمل مفهوم الفردوس في ثنايا فلسفتها .

وكما أن اليهودية أخذت تنظر للحياة من زاويتها الخاصـة . هكذا فعلت الماركسية . وكما ان اليهودية جاحدة ومتنكرة ، هكذا الماركسية جاحدة ومتنكرة . وكما أن اليهودية تحاول أن تدرك العالم كما تريد وتشاء أن يكون العالم كما تبتغي ، هكذا تحاول الماركسية أن تتفهم الحياة كما تريد .

وكما أن الماركسية لا تجد انطلاقاً الا من ذاتها فهي تبتدىء وتعود لذاتها ، هكذا اليهودية لاتجد بداية ونهايـة الا بها • فالذات هي الكيان عن الاثنتين • وهكـذا فهما ماديتان جاحدتان • وكمـا أن اليهودية سببت الشقاء والدمار للعالم واشعلت الحروب وأقامت الويلات ، هذا ماتفعله الشيوعية : أن تسيطر عـلى العالم بشتى الطرق والارهاب والتقتيل واراقة الدماء •

* * *

ولننتقل الى فكرة اليهودية والشيوعية •

لقد قامت اليهودية على انقاض أعمال قوادها ومنظميها • فهي لم تأخذ القيم الالهية وسكبتها في قالب المحبة والعمل لصالح الانسانية بل عملت على تحقيق ذاتها فقط • فاليهودية ليست بدين اذن بـل حاولت أن تعبر عن ذاتهـا كدين • والماركسية ليست بدين بـل حاولت أن تكون دين العالم المادي • اليهودية والماركسية دين المادة •

وكما أن اليهودية ضائعةولا تدري ماتفعل هكذا تكون الشيوعية• لقد أدركت اليهودية أن لاوطن لها وهكذا أدركت الشيوعية ، ورغم هذا فكلاهما متعلقتان بوطن • وهكذا فالتعبير المادي هو الذي يسيطر على كـلا المفهومين • الشيوعية هي ذات المـادة ولا عقلانيتهـا وكذلك اليهودية •

من هذا نرى أن الماركسية أخذت جذورها عن النظريات الانسانية القديمة فحورتها وأوجدت فكرة لها منها • وعندئذ تبنت الديالكتيك فرسمت خططها ومنهاجها القائم على التناقض • وأخذت عن اليهودية الفكرة المخلصية النهائية للتطبيق العملي •

وليست الشيوعية سوى التطبيق العملي لليهودية والتقليد المادي للكون وتجميع التناقضات ووضعها بقالب لايدرك منه سوى طريقة واسلوب قائم بحد ذاته • لقد حاولت أن تظهر عظمتها باظهارها للتناقض ، وقد استطاعت أن تظهر التنقض القائم بين الفلسفات فعلا وبنت عليه • وهكذا وقعت في شرك مفهوم التناقض فأوجدت قانوناً جديداً يتمشى مع واقع الذات لكي تتخلص من ارتباكها وخطأها •

ان الماركسية هي اليهودية في أقصى تطورها •

- ٤ -

المسيحية

العالم موجود ! ووجود العالم يفترض سبباً ونتيجة • وهكذا يجد الانسان نفسه في هذا الكون العظيم ويحاول أن يزيل الستار عن وجوده ومعرفة كنه الوجود • فوجود الانسان هو وجود المعرفة ، وبالمعرفة وحدها يستطيع أن يدرك حقيقته • فالانسان اذن يسعى وراء الحقيقية • وهذه الحقيقة متجسدة به كجوهر واحد وكائن في وجوده ، كفكرة وكمادة • وهكذا يسير الانسان نحو تحديد وجوده كجوهر أو ككيان كمفهوم أول ، وكمفهوم ثان كمادة • وسبب هذا يعود للوجود ذاته • فوجود الانسان يحتم الوجود الفكري والمعنوي والمادي وهذا مايدفعه لان يفكر بالروح وبعالم آخر وبكيف آخر لانه يحاول أن يفهم القسم الغامض من وجوده لكي يدركه ويحققه • وعندئذ يتحول للمادة ويحاول أن يدركها أيضا • وكثيرا ما يتعلق

الانسان بالمادة لجهله حقيقته الروحية ، ولذلك فان كل انحراف نحو المادة يعد جهلا وعدم سبر أغوار الكيان الانساني ٠

وهكذا كانت الديانات ٠ كانت لتبحث في هذه الحقيقة ولتوضح للانسان جوهره وكيانه ٠ وكانت أولى هذه الديانات التي تبحث في الانسان وحقيقته هي البوذية (ولكن ماركس لم يجد بها علته) ٠ وسبب ذلك هو أن البوذية ، رغم انها ديانة عظيمة وممتازة تعلم الانسان الصلاح والتقوى والحق ولكنها ليست منهاجاً كاملا وفلسفة قائمة بحد ذاتها ٠ ولكي لا نمر بالبوذية مرور الكرام ، وهي من الديانات الموجهة التي اعتبرها من أنبل ماوجد في الفكر الانساني ، يجب أن أتكلم شيئاً عنها ٠

البوذية ، فوق كل شيء ، ديانة أخلاقية ممتازة ترفع الانسان الى مراتب عالية من الكمال ولكنها لاتبحث في حقيقة الانسان ولاتظهر قيمته انما توجهه نحو الفضيلة فقط ٠ هدف البوذية أن ترفع الانسان الى أوج درجات الكمال ، الى النيرفانا ولكنها ليست بالمنهاج والفلسفة التي تقول للانسان أشياء كثيرة عنه وعن حقيقته وعن وجوده وعن انطلاقه في عالم الحق ٠ ولذلك لم يجد بها ماركس ضالته المنشودة ٠

التفت عندئذ ماركس الى المسيحية لانها الديانة المسيطرة في أوربا ، وماذا وجد بها ؟ وقبل أن أجيب على السؤال جواباً مباشراً علي أن أظهر مفاهيم المسيحية كما أفهمها ٠ وفي هذا الجواب غير المباشر أحاول أن أبدي كيفية انطباع ماركس بها ٠ ويمكن فهم المسيحية كما يلي :

١ ـ المسيحية الحقة ٠
٢ ـ نقضها للمبادىء الاخرى ٠
٣ ـ ما قاله المفكرون بها ٠

ولايمكن في نظري ، دراسة نقضها للمفاهيم الاخرى قبل البدء بدراستها كحقيقة ٠ والقسم الاول يتضمن القيم الثلاثة :

١ ـ فكرة المسيحية ٠

ان وجود الانسان على الارض هو نتيجة لوجود حقيقة وفكرة ٠ والفكرة اذن موجودة ووجود الانسان لايمكن أن يـؤدي الى نقضها وعدم الاعتراف بها لانها موجودةقبله ٠ والانسان اذن تجسيد للفكرة الازلية ٠ اذن هو وجود الفكرة الازلية في اطار المادة التي هي مظهر أول للفكرة ٠ فالانسان اذن هو جوهر الوجود وفكرته ٠ وهكذا هو مثال الحقيقة وينبوع الحق في العالم ٠

وماهي الفكرة الرئيسية من وراء حقيقة الانسان ؟

كان الانسان دوماً يفتش عن جوهره وجوهر الوجود ٠ واختلفت الآراء بالنسبة لكل عصر ولكل انسان ٠ ولم يعرف لوجود الانسان والكون مفهوم واحد حقيقي ٠ فظهرت هذه الحقيقة في المسيحية التي اظهرت ان وجود الفكرة أي الروح ـ وهي الجوهر ـ موجودة كمفهوم أزلي ٠ وتم تجسيد هـذه الفكرة في المادة التي جعلت من الطبيعة الانسانية جوهراً قائماً بحد ذاته ٠ فوجود الفكرة وتجسيدها قـد أظهر وبرهن على وحدة الوجود وهدفه ٠

وماهو هدف تجسيد الفكرة بالنسبة للمفهوم المسيحي ؟

لقد ظل الانسان جاهلا لحقيقته ولم يستطع أن يدرك جوهره

الحق · لم يعرف الانسان نفسه ولم يقدر كنه ذاته وكيانه · لم يحاول أن يتفهم الا ذاته وبقي بعيداً عن كيانه وحقيقته · ولقد أظهرت المسيحية مفهوم الانسان بأنه الفكرة الازلية المتجسدة في المادة · أخذ الانسان يعلم انه جوهر عظيم قائم بنفسه ويجب عليه تحقيقه رغم انه موجود في اطار ندعوه المادة · فتجسيده هو مقدرة ادراكه لطاقته المادية ورفع هذه الطاقة لمستوى الكيان أي الفكرة ·

وماذا أصبح مفهوم الانسان ؟

يقوم مفهوم الانسان اذن على أنه روح أو فكرة متجسدة · وقد ظهرت الفكرة هذه · وظهورها يبرهن على هدف الحياة · فالحياة هي مجال تحقيق الفكرة · فالحياة اذن قائمة في الانسان ·· والانسان هو جوهر الوجود وفكرته ومثاله · وهكذا لا يتم تحقيق الوجود وادراكه الا بتحقيق الفكرة في الانسان ·

فمفهوم الانسان اذن هو الفكرة ، هذه الفكرة التي تعبر عن أرفع مايمكن للوجود تحقيقه · وهكذا فقد أصبح للوجود هدف أو مثال هو الفكرة المتجسدة في الانسان · وهنا قامت فلسفة تامة تعمل على الدوام على تحقيق ما يحيطها · ومايحيط بالفكرة ؟ المادة والذات · وهذه الذات التي هي من مقومات الحياة ، لانها عنصر منها ، يجب تحقيقها أيضا · وتحقيق الذات لايكون الا بفهمها والعمل على رفعها الى أعلى درجات الكيان أي الفكرة ، والا تخضع الفكرة لها · فتموت قيمة الانسان ·

لقد أصبح واضحاً أن للحياة هدفاً ، هو تحقيق ذاتها ضمن اطار الفكرة لكي تعبر عن حقيقتها · وهكذا تكون الفلسفة المسيحية

فلسفة تامة قائمة على حقيقتها ، تعمل على اظهار هدف الحياة وسبب وجود الانسان · ووجود الفكرة في اطار المادة برهن على وجود هدف يجب أن يعمل لاجله الانسان · وكان من الممكن ايجاد المادة دون وجود الفكرة ولكن لايتم وجود المادة دون وجود الفكرة · وهكذا لن يكون للمادة هدف الا بوجود كيان لها · وهذا الكيان هو الفكرة · فالفكرة اذن هي مثال الحياة وهدفها · ولايمكن تحقيقها الا بتحقيق الذات ورفعها الى مستوى الفكرة · فالحياة مثال يعمل الانسان على تحقيقه بتحقيق مادته وروحه ·

وهكذا أخذ هيجل فلسفته من هنا · لقد لاحظ وجود قـــوة ومقدرة في المسيحية فأخذ عنها رغم انه لم يدركها · وحاول تبرير المفهوم بما دعاه هو بفلسفته الخاصة ·

وماذا أتمت المسيحية بهذا ؟

لقد قامت المسيحية على اظهار حقيقة تامة · ولكن ألـم توجد حقائق من قبل ؟ كانت هناك حقائق ولم تتنكر المسيحية لها اطلاقاً · لقد بنت عليها المسيحية وانطلقت الى المجال الاعظم الذي به يتحقق الكيان ويكون هـدف الحياة واضحاً جلياً وهكـذا يكون للمسيحية ديالكتيك يظهر كما يلي :

١ ــ اظها رهدف الوجود والبرهان عليه ·
٢ ــ اظهار حقائق صالحة لكنها غير كاملة ·
٣ ــ اظهار الفكرة أو الطريق ·

ويتم الديالكتيك كما يلي :

١ ــ تفهم المبادىء القديمة والاخذ عنها ·

٢ ـ البناء عليها وتطويرها ٠

٣ ـ اظهار المبدأ الحقيقي ٠

لم يكن ديالكتيك المسيحية هداماً لانه اتخذ من المبادىء الباقية مبدأ عاماً يعمل على رفع قيمة الانسان وتحسينه ٠ وعندما أخذت المسيحية المبادىء السابقة وعلمت انها تعمل لصالح الانسان وترفعه للاعلى ، زادت عليها وظهرت الحقيقة الكاملة كما يجب أن تكون ٠ وهكذا لم تهدم المسيحية ماسبقها أو ما أتى بعدها لانها علمت انها تظهر حقيقة تامة ٠ ولم تفعل كالمادية التي حاولت أن تهدم كل شيء ولا تظهر الا ماديتها الذاتية ٠

المسيحية اذن بديالكتيكها أظهرت حقيقة ٠ أظهرت نسب الحقيقة الموجودة عند غيرها وقالت ان الجوهر موجود ولكنه يجب أن يتم ٠ وهكذا عملت على اتمامه لكنها لم تهدم ٠ علمت أن البوذية مثلا أو الموسوية والمفاهيم السماوية الاخرى التي سبقتها تظهر جوهر الانسان ٠ فعملت على اتمامها وتعليم الحقيقة ٠ وهكذا يكون ديالكتيك المسيحية بناء يعمل للعلاء بينما ديالكتيك ماركس يعمل للتهديم ٠

* * *

وكيف اعتمد ديالكتيك ماركس على ديالكتيك المسيحية ؟

لقد قلت سابقاً أن هيجل أخذ عن المسيحية ولكنه أراد أن يظهر للعالم بأنه صاحب طريقة جديدة ٠ فجعل المثالية تنطلق عن ديالكتيكه هو ٠ ولكن ديالكتيكه اخطأ لانه لم يؤد أخيرا الى ابراز المثال الذي كان يود شرحه بل اعتمد على التناقض وأدى الى تناقض لكنه بقي ضمن عالم المثال ٠

وأخيرا أتى كارل ماركس وأخذ عن هيجل ديالكتيكه وحوره الى مفهوم مادي ذاتي · لكنه لم يجد عند هيجل الفكرة من وراء ديالكتيكه وعلم أن هيجل أخذ عن المسيحية · فعاد اليها ووجد بها الفكرة · لقد علم أن المسيحية تهدف لفكرة وتعبر عنها واظهرت أين هي الفكرة· لقد أظهرت ان الانسان هو فكرة الوجود · وهذه تكون نتيجة ماركس:

١ ــ وجد شبح الفكرة في ديالكتيك هيجل ·
٢ ــ وجد الفكرة في المسيحية ·
٣ ــ اعتمد الديالكتيك ليعبر عن الفكرة ·

وهذه كانت النتائج :

١ ــ اعتمد على ديالكتيك لايقوم الا على التناقض ·
٢ ــ لم تقم المسيحية وفكرتها على التناقض ·
٣ ــ أخذ الفكرة وأراد أن يبني عليها بالديالكتيك ·
٤ ــ لاتقوم الفكرة على التناقض بل على التكامل ·
٥ ــ اعتمد الديالكتيك القائم على التناقض للبرهان على الفكرة القائمة على التكامل وعدم التناقض ·

وهكذا عمل ماركس على أن يظهر أن للوجود فكرة · فأظهر أن هدف الوجود هو الشيوعية · ففكرة الوجود اذن هي الشيوعية· وأراد البرهان الكامل ففتش عنه في بطون التاريخ فكان برهانا ناقصاً ، لانه ماذا وجد ! لقد وجد التناقضات العديدة ، وجد المؤسسات التاريخية والمفاهيم الاقتصادية ، وجد أعمال الذات التي ندعوها بالتاريخ · فأخذ هذه المظاهر ونتائجها ودرس أهم مراحلها وأخذ التناقضات ليبرهن على واقع · وأراد أن يبرهن على فكرة بواسطة الديالكتيك أي تناقض تلك التناقضات · لكنه لم يعتمد على الفكرة

ولم يبنها عـــلى تكامل المفهوم الانساني بل عـــلى تناقض أعمال الـــذات • وبمـــا أن الـــذات هي المسيطرة عبر التاريـــخ وبمـــا أنها لا تعقل سوى ذاتها ، فانها لاتقدر أن تعبر عن الفكرة لان الفكرة لاتعبر الا عن جوهرها وعن هدف الانسان الحقيقي أي الحياة الحقة •

وهنا وصل ماركس لنتيجة معاكسة لواقع الحياة • أخذ الحياة من ناحية ديالكتيك المادة أي الذات التي تقوم على الصراع والجهل ، ومايقوم على الجهل يتبدل من وقت لآخر • فالحضارات التي مرت كانت معظمها تناقض بعضها لان ذاتهـــا كانت قائمة عـــلى جهل الحقيقة فبدلت كل حضارة أتت كل ماكان قبلها وبنت مفاهيمهـــا الخاصة أو مايشابهها • فالذات وجهلها اذن أوجدت هذه المؤسسات الغير الواعية رجعلتها مادة للتاريخ • هي مؤسسات متنافرة ومتناقضة لاتعي سوى ذاتها وســـوى مادتها • وهكذ فالتناقض من أصولها وجوهرها ، فكيف يمكن ان تؤدي الى اظهار فكرة طالما انها ليست فكرة أو هدفاً ؟

لقد أتى ماركس الى هذه المجموعة المبعثرة من أعمال ومؤسسات التاريخ وحاول أن يستنبط منها فكرة أو هدفاً • ولـــم يجد وسيلة لتحقيقها سوى الفكرة عند المسيحية والديالكتيك عند هيجل • ولقد اخطأ في الناحيتين لان الفكرة عند المسيحية قائمة بحقيقتها ولا تحتاج لاي برهان طالما أنها متجسدة في الانســـان ولا يتفهم الانســـان الا بالذات أو المادة • وكل أعماله قامت على الذات التي أظهرت تناقضاً عظيماً في الحياة • هكذا كانت كل مفاهيم التاريخ ومؤسساته نتيجة لصراع الذات وعدم فهمها للحقيقة أو الفكرة • لقد عملت المادة على اظهار واقعها من ذاتها فعملت عـــلى ايجاد وسيلة تكون مادة للتاريخ •

وأوجدت هـــذه المادة بالتغيرات والتبدلات التي كانت تسـير عبر التاريخ · فالتاريخ ومؤسساته هو تعبير الذات عن مادتها اللاواعيـة لفكرة الحياة ولهدف الانسان وفكرته الواعية ·

عن هـــذا أخذ هيجل وبالتالي ماركس · لقـد جعل ماركس الديالكتيك الوسيلة الوحيدة · والديالكتيك هذا قائم على التناقض الدائم ولم يكن ديالكتيك ماركس نتيجة لتكميل مفهوم بل لتحطيم المفاهيـــم الاخرى واقامـــة الفكرة التي يظن أن الحيـــاة كذات تسـير نحوهـا ·

لقد ظهر خطأ ماركس بوضوح في تنظيمه لديالكتيكه · يجب أن يعتمد الديالكتيك على الفكرة لكي تؤدي الى فكرة · ويجب أن لا يقوم على تعاكس وتناقض بين القوى الفكرية التي تستمد جذورها من لا وعي التاريخ أو ذاتيته المادية · ان ديالكتيك ماركس موجود في التاريخ ولـــم يكن من الضروري كتابتـه طالما انـــه تناقض ظاهر بأجلى مظاهره ·

* * *

لقد استمد ماركس الفكرة من المسيحية وأراد أن يبني عليها · لقد اتخذ من المادة أو الذات نقطة انطلاقه واعتمد بعدئذ على اليهودية كايجاد حل للعالم تخلصه أي أنه اعتنق نظرة المخلصية فيها القائمة على الصراع · وهكذا يكون ديالكتيكه ديالكتيك الصراع والتناقض · وأخيرا بحث عن فكرة للوجود لكي يعلله فأخذها عن المسيحية وشوهها·

ويهمنا الآن بحث الفكرة التي أخذها عن المسيحية · فعوضا أن تكون تامة بقيمتها وجوهرها جعلها قائمة على تناقض القوى التاريخية لايجاد فكرة معينة · ولكن الشذوذ لهذا يظهر كما يلي :

١ ـ لايمكن أن تقوم الفكرة على أساس تناقض ٠

٢ ـ الفكرة قائمة وموجودة بجوهرها وهي لا تعرف التناقض والغموض ٠

٣ ـ لايمكن أن نصل الى فكرة من تناقض التاريخ الظاهري القائم على الذات ٠

٤ ـ بما أن ديالكتيك ماركس لايعتمد على الفكرة الحقة فانه يقوم على الذات التي تناقض ذاتها ٠

٥ ـ ديالكتيك ماركس والفكرة عنده امتداد لذاتيته المادية غير الواعية ٠

وهكذا نرى أن ماركس قد زاد في تشويه ماسبق ولم يعتمد على نقطة حقة في اظهار جوهر وحقيقة ٠ ولم يكن سوى مشوه لنظرة حقة ، اذ لو أخذنا المسيحية بروحانيتها وقلبناها لمادية غير واعية نصل للشيوعية ٠

لم يعتمد ماركس على لمسيحية كما هي بل فهمها من خلال الكتاب المسيحيين الذين قرأهم أمثال باور وشترنر ولذلك لم يكن نقد ماركس قائماً على الفهم بل على ماوجده في كتب هؤلاء ٠ ولذلك انتقد ماركس مسيحية باور وشترنر مع العلم ان هؤلاء لم يلموا بالمسيحية بشكل مطلق ٠ ولذلك شوه ماركس المسيحية لانه لم يفهمها ٠ كما انه اختلف عنها في مفهومه للفكرة لانها تعني جوهر الانسان الذي هو فكرة الوجود ٠ وعلى هذا الاساس لم يقدر ماركس أن يوجه نقده للمسيحية بل وجهها الى الكتاب الذين كتبوا عنها ، مع أنهم لم يتفهموها تماماً ٠

* * *

رأينا كيف استطاعت الماركسية ان تجد اتباعا لها لان هؤلاء الاتباع فرضوها قانونا وفلسفة · ونتيجة انتشار الشيوعية كعمل يخلص البشر من مشاكلهم يعود الى أنها النظرة التي تفرض القضاء على الفوضى بالفوضى ، ولم يكن اتباعها سوى فوضويين لم يقدروا أن يتفهموا حقيقة الانسان وجوهره وفكرة الوجود ، ولم يتفهموا نتيجة وجوده ككائن عظيم · لقد فهموا مظاهره كذات غير واعية وجعلوا عظمة الانسان غرائز تعمل لذاتها·

الشيوعية هي التعبير عن اللاوعي أو الغريزة أي الذاتية · لهذا قال بعض علماء النفس ان للانسان غرائز لانهم لم يتفهموا سوى ذاته · ان نتائج الغرائز تبدو واضحة لانها أعمال غير عقلية تصدرعن المادة بدون ادراك ، اذن هي من أعمال الذات · ولكن بما أن للانسان ادراكا وعقلا ودرجات عليا من السمو ندعوها بالنفس والروح ، هكذا لم تستطع الشيوعية الا أن تتعلق بذاتية الانسان ، وعملت على اظهار تناقضها تماماً واعتمدت أخيرا على حل تام فأوجدت نظامها القائم على التناقضات لاظهار واقع الذات ·

أما الذات فلا يمكن تسميتها أيضا بالغرائز ولا تعمل الذات لذاتها دون الاعتماد على محرك رئيسي متطور ونام ولذلك فالشيوعية هي ثورة اللاوعي · انها تمثل الجهل ، جهل الانسان لحقيقته · وهكذا أخذت الشيوعية مبادئها من غيرها بشكل مشوه ·

* * *

البـاب الثاني

- ١ -

نقد مفهوم الثـــورة

لماذا يثور الانسان ؟

يثور الانسان لانه يريد أن يحقق مطالبه · وهذه المطالب هي نتيجة مايشعر به في المجتمع · ان مطالب الانسان هي خلاصـــة حاجاته المادية والمعنوية · ولا يمكن أن يثور الا اذا رأى أن حاجاته ومطالبه لم تحقق ·

ولكن ماهي مطالب الانسان ؟

يتألف المجتمع من مصالح متضاربة ومتنافرة تجعل الفرد الا يفكر الا بمصلحته وتحقيق حاجياته · ولكن حاجات الانسان لا تحقق بل لايقدر الانسان أن يحقق ولو الشيء الضئيل · وتحقيق الحاجات لايكون متناسبا وما يحتاجه حقا بل كما يرى غيره قد حقق منها · وتحقيق المطالب لا يكون نتيجة للمقدرة بل نتيجة المقدرة الاجتماعية التي يفرضها الشخص أي حنكته وخداعه لغيره ·

ولكن ماهو جوهر الحاجات والمطالب ؟

يرى الانسان أن المجتمع تتحكم به المفاهيم والقيم · وهـــذه كلها قائمة على التناحر القائم بين الافراد · فالقيم الموجودة في الاشياء والمهن وغيرها هي من وضع الانسان · وتقاس هذه المهن بالنسبة لقيمها

ومفاهيمها الاجتماعية . قيمة الطبيب هي نسبية لدخله ولعمله ،وقيمة المهندس أو غيره نسبية لما يستطيع أن يفرضه من حنكة وعمل . وهكذا تكون كل قيمة متناسبة مع كل مطلب من المطالب ، ولكن المجتمع لايقدم لكل فرد وسيلة ناجحة لتحقيق قيمه . ولا تكون المطالب ذات شأن لولا القيمة الموجودة فيها . ولا يعمل الانسان لتحقيق هدفه الا لاجل تحقيق المفهوم الجاثم وراءه . وهكذا لا يعمل الانسان لتحقيق نفسه .

وعندما لايقدر الانسان أن يحقق مطالبه يثور . وثورته لاتقوم على وعي حقيقة مطلبه بل على مجرد التفكير ان مطالبه يجب أن تتحقق كما تحققت مطالب غيره وبنفس الوسيلة . وتكون الوسيلة هدفاً لانها الطريق المؤدي لتحقيق المطالب بينما المطالب ذاتها لا تعبر عن حقيقة بل عن خيال ووهم .وهكذا تكون الثورة ثورة الجهل واللاوعي، لان الهدف الذي يبغيه المرء لايكون نتيجة لتفكيره المجرد بل نتيجة لعدم فهمه لحقيقة مطلبه . انه يبغي المفهوم والقيمة في ذلك الشيء ولايريد تحقيق فكرته الانسانية في ذلك المطلب .

مطالب الناس تعبر عن مدى رغبتهم في الحصول على الاشياء . وتكون درجة الرغبة كبيرة لانها لاتحد بحدود طالما أن الاشياء متعددة وتتدرج من السلطة للغنى والثروة والجاه الخ . وهذه المطالب أكثر مايسعى الناس وراءها لكي ينالوها . فاذن هي مطلب جميع الناس. فالثروة مثلا هي حاجة مشتركة بين الجميع لا بل رغبة قائمة على تثبيت ذاتية الانسان في مفهوم الثروة . لماذا يريد الانسان الثروة ؟ لانها تحقق أهدافه ؟ ولماذا يريد أن يحقق أهدافه ؟ لانها تظهره بمظهر المنتصر اجتماعياً . ولماذا يريد أن يظهر بمظهر المنتصر اجتماعيا ؟

لانه يثبت ذاته في المفاهيم الاجتماعية والقيم المتعددة . ولماذا يريد الناس السلطة ؟ لانهم يظهرون بمظهر القادرين على كل شيء . ولماذا يريدون أن يظهروا بمظهر القادرين على كل شيء ؟ لانهم يعلمون انهم يستطيعون أن يحققوا المفاهيم التي ابتغوها .

نرى من هذا ان الانسان لايريد ان يحقق نفسه وكيانه بل يريد الوصول للسلطة والثروة لانهـا مفاهيم اجتماعية قادرة أن تظهره بمظهر المنتصر القادر على كل شيء . وهكذا يبتغي الانسان الثروة بل يبتغي المفهوم والقيمة التي من ورائها. ولايبتغي الثروة الا لاجل مفهوم العظمة الكائنة فيها . ولايريـد الجاه الا لكي يظهر بمظهر العاتي والمكتمل الشخصية .

وماهي مطالب الانسان في المجتمع ؟ هي مطالب يحاول أن يحقق فيها شخصيته الاجتماعية الناقصة التي لا تكتمل الا بوجود هذه المفاهيم القائمة على الصراع والتناقض . فأنا لا أريد أن أحقق مطالبي لو أن هذه المطالب لا تحقق مفاهيم العظمة الاجتماعية التي أسعى وراءها ، وهكذا لا تقاس هذه المطالب الا بنسبة المفاهيم والقيم الكائنة فيها ولايمكن ادراك هذه القيم الا بالحصول على الوسيلة التي تؤدي الى تحقيق المطالب . وهكذا لايتمنى الانسان أن يصبح ذات شأن الا لان مفهوم العظمة كائن في ذلك المطلب .

وبما أننا رأينا أن هذه المطالب موجودة عند كل انسان وبمـا انها قليلة ولا يمكن لكل شخص أن يحققها ، لذلك يحققها القليل بينما تبقى الاكثرية دون تحقيقها . ولايمكن للاقليـة تحقيقها الا بطرق ملتوية لا شرف ولا فضيلة فيها . وبما ان الاكثرية لا تقدر على تحقيقها هكذا اذن تثور .

ولكن هل يثور الانسان لانه يرى حقيقة في مطالبه ؟ لقد وجدنا أن الوسائل لتحقيق المفاهيم المجسمة في المطالب هي مفاهيم ناقصة تصدر عن الذات فقط اذ هي غير واعيـة لانها لا تحقـق الا بطرق ملتوية · اذن لماذا يثور الانسان لتحقيقها طالما انها ناقصة ولا تعبر عن حقيقة وعظمة ؟

ان تحقيق الانسان لهذه المطالب هو نتيجة للصراع القائم بينه وبين نفسه · وهذا الصراع نتيجة عدم فهمه لنفسه ولكيانه وعدم فهم الكيان يؤدي الى صراع عنيف يؤدي الى خلق مفاهيم جديدة · وخلقه للمفاهيم يؤدي بـــه الى تعلقه بها ، فيعمل عـــلى تحقيقها · ولكن تحقيقها لايتم الا للقليل لان السلطة مثلا لا تكون الا للاقلية والثروة لا تكون الا للاقلية وهكذا الجاه · ولا يتمكن كل فرد أن ينال مايريده من مفاهيم قائمة في المطالب التي يبغيها · وهكـذا يتم الصراع بينه وبين نفسه · ونتيجة هـــذا الصراع هو تحقيق القسم الثاني من وجوده وهو الذات ·

تعمل الذات على تحقيق ماتصبو اليه من مفاهيم مادية لانها لـم تستطع أن تتفهم حقيقة الانسان · فتحاول أن تستعيض عنهـــا بمفاهيم خلقتها تنسجم مع الذات · وهكذا تكون كل محاولة تصدر عن الانسان هي نتيجة لجهل الذات وانغماسها في عالمها الحقير الذي هو المادة والذي هو من خلقها ·

وعندما لاتستطيع الذات أن تحقق ذاتهـا أي مطالبها تثور · (وهذه هي نظرة كارل ماركس في المساواة ، المساواة بين الانسان والانسان كذات) · تثور الذات لانهم لم تدرك قواها فتعمل عـلى

خلق قوى جديدة تناسبها وتلائمها · وهذه القوى هي نتيجة حتمية للمادة أي كل مطلوب للمادة متضمن في المفاهيم التي خلقتها · اذ أن الانسان عندما لـــم يستطع أن يتفهم حقيقته خلق واقعا ماديا يناسب ذاته · وتسير الذات وراء هذا الواقع ولكنها لا تفوز بـه وهكذا تثور ·

تثور المادة لانها لا تقدر أن تفقه وتدرك المفهوم الذي تسير وراءه وتريد تحقيقه · ولكن ما تعلمه هو أن هذا المفهوم المتجسد في الطلب يناسبها لكي تظهر بمظهر المتفوق القادر · اذن عدم فهم الانســان لقواه يدفعه في طريق خلق المـادة لمطالبها والتعلق بهـا تعلقا أعمى لايعرف سواها · وتكون المطالب هي كل مايبتغيه الانسان في حياته· وتكون الحاجات نسبية لحاجات غيره · وهـذه كلها تعمل عـــلى زيادة الصراع ·

وهكذا تكون المطالب واحدة ولكن تحقيقها يكون نسبيا · ونسبية التحقيق يؤدي الى صرع عنيف بين الناس : بين الانسان ونفسه كرد فعل لخلقه وبينه وبين الآخرين لعدم مساواته مع الآخرين ·

ان صراع الانسان مع غيره ناتج اذن عن عدم تحقيقه لمطالبه · ولكن هل هذه المطالب نتيجة لوعي الانسان وتفهمه لحقيقته ؟

لو كان الانسان يدرك أن مطالبه لا تحقق نفسه لاعرض عنهـا ولكنه يجهل هذا · وهكذا يكون أول عنصر من عناصر الثورة هو الجهل · وبما أن الجهل هو من ميزات الذات لذلك تكون الثورة هي ثورة الذات ·

وهكذا نستطيع أن نسمي هذه الثورة بالثورة المادية المنبثقة عن

عدم تفهم الانسان لنفسه وعدم تحقيقه لكيانه · كل مايبتغيه المرء هو تحقيق الذات الغاشمة · وهكذا يدأب كل مرء أن يحقق مطالبه الناتجة عن ذاته الجاهلة · وتكون الثورة هي النتيجة الحتمية · ولان الانسان لايدرك قواه هكذا يكون معرضا لاستعمال العنف أو الثورة ضد الجميع · ويكون العنف من صفات الذات لانها لا تفقه · وعندما يفقه الانسان مقدرته وقواه يصبح واعيا ، ووعيه يقوده للاعنف · وهكذا تبطل الذات وأنانيتها وجهلها · ويقضى عندئذ على مفهوم الثورة القائمة على صراع الانسان لنفسه ·

الثورة لمادية مشكلة اذن لا تحل مشكلة الانسان بل تزيده تعقيدا لانها تؤدي الى الفوضى الزائدة والىعدم الاستقرار · انها تؤدي الى تحطيم كل قاعدة اجتماعية وتغييرها لان الذات لا تقوم علىالوعي· وعندما تصطدم مطالب الجميع أو الفئات مع بعضها تبتغي ذات المفهوم وتؤدي أخيرا الى وجود صراع المفاهيم والى ثورة المفاهيم التي لا تتم الا بعد أن تكون الفوضى قد اجتاحت الجميع · وهكذا لاتصلح الثورة المادية ما أفسد بل تزيد الفساد لانها لم تقمع الجهل أي جهل الذات وأنانيتها بل زادتها اذ جعلت الذات أن تثور على غيرها · وهكذا لا تهدأ الانفعالات المتزايدة بين البشر ·

ان الثورة الحقيقية قائمة في الثورة النفسية أي الفكرية · هذه الثورة التي تقضي على الشكور وتحقق الصلاح مكانها · انها الثورة السلمية التي تحطم كل جهل لانها تقوم على الوعي · فأنالاأثور نفسياً الا اذا أدركت خطأ غيري وتفهمت أموري ومطالبي · وهكذا لن تكون ثورتي نتيجة مطالب ذاتية بل تكون نتيجة لتفهمي لحقيقتي والعمل على اصلاح ما أفسد · وهكذا تكون الثورة النفسية هي

الاصلاح والوعي بينما الثورة المادية هي التخريب والجهل لانهـا صادرة عن ذات لاتفقه سوى مادتها ولا تدرك سوى صراعها مع كل ماينـاقضها • ولايمكن أن تكون الثورتان واحـدة لان الواحدة تعي الحقيقة بينما الاخرى تجهلها وتتنكر لكل فهم وادراك •

وعلام يثور الانسان ؟ هل يثور على مايفترضه ظلماً ؟ واذا كانت الامور التي يراها ظلماً هي سبب ثورته فكيف يثور ؟ الكي يعيدها ويعمل بها ؟ وان كان أصحاب الظلم قد توصلوا الى مفاهيمهم وتحقيق مطالبهم بطريقة سافلة فكيف يمكن للثائر أن يعمل نفس الشيء ؟

لو عرف الانسان نفسه لما ثار ، ولو علم أنه قد أتى الى الحياة ليفهمها ويفهم نفسه ويدرك قواه المادية والروحية لما ثار • ولذلـك فثورته هي فوضويته المادية غير الواعية التي تفرض وجودها بشكل مفاهيم اجتماعية • تحاول الذات أن تحقق اطارها المادي الذي يقوم عـلى الاعتقاد أن المادة وكل ميولها ورغباتها هي الوجود الحقيقي للانسان • ولكن لو استطاع أن يدرك الانسان نفسه من خلال حقيقته لعلم أن الثورة هي جهله لحقيقته •

لقد قلت ان الثورة هي نتيجة صراع الانسان مع نفسه • وذلك يعني أن الانسان حاول أن يفهم نفسه لكنه لم يستطع • وحـاول عندئذ أن يخلق شيئا من عنده ، فكانت نظمه ومفاهيمه ، تلك المفاهيم التي تتعلق بحاجاتـه ومطالبه • وهـذا الخلق أدى الى وجـود نزعة مادية بحتة عنده نتيجة لجهله ولعدم فهمه • وحاول الانسان أن يطبق مفاهيمه وقيمه التي خلقها فوجد الفوضى تسيطر ووجد غيره من النـاس يعملون عـلى تحقيق نفس المفاهيم • وهكـذا يثـور ويقوم بالعنف •

ولكن لو فهم الانسان قواه العقلية والنفسية والروحية لعرف أن الهدوء واللاعنف هما من دلائل التقدم والاصلاح · ويكون الهدوء نتيجة المحبة الانسانية ووعي الانسان لنفسه درجة كبرى في المعرفة والوصول الى غايات كبرى في مجال الحقيقة ·

لن تكون ثورة طالما يعرف الانسان أن مطالبه هي نتيجة جهله ، وطالما يعلم أن تلك المطالب ليست هدف حياته ولا جوهر وجوده ، وطالما يعرف أن الحقيقة الموجودة به يجب أن تنزع دوما نحو تفهم قواها بأشكالها المتعددة ، مادية وروحية ونفسية · وليست النزعة المادية شريرة طالما هي نزعة تنطلق عن المفهوم النفسي ·

هذا هو خطأ الشيوعية · لقد عقلت الروح والنفس واحتجزتها في سجن مظلم واطلقت الذات التي هي آثار الحيوانية فينا من عقالها لكي تنطلق في العالم · ولا تستطيع الذات أن تحقق مطالبها ومقوماتها التي يمكن أن تصبح غرائز الا بالعنف والثورة لانها لاتفقه المطالب وأهدافها الا بهذه الوسيلة ، ولان هذه الوسيلة هي وحدها طريق الذات · ولا تقدر الذات ان تبرهن عن وجودها الا بالثورة طالما انها تحاول فرض وجودها ·

وهكذا لايمكن أن تصدر الثورة عن الوعي لان الوعي يجدالحلول والاسباب ويتفهم · ومتى وجد الفهم ماتت الثورة ·

والام تؤدي الثورة ؟ هل تؤدي للاصلاح والقضاء على الشر ؟ انها تؤدي الى فسح المجال للنزعات الذاتية الاخرى التي تحاول أن تقوم وتثور أو أن تكبت ثورتها طالما أنها لا تستطيع اظهار المثل بالمثل · وتؤدي أيضا الى فرض مشيئة الحاكم ، المشيئة غير الواعية لكي يفرض سيطرته وليعبر عن ذاته وأنانيته الى حد بعيد ·

وضد من يثور الانسان ؟ يثور ضد السلطة ؟ وماهي السلطة ؟ هي أناس قلائل يسيطرون على مصائر الناس المادية · وكيف تدافع السلطة عن نفسها ؟ انها تدافع بواسطة جنودها ومن يلوذ بهـا · وهل أن الذين يدافعون عن السلطة يدركون ماذا يفعلون ؟ كلا · وهل الذين يثورون يدركون ماذا يفعلون ؟ كلا لانهم يقتلون هؤلاء الذين لا يدركون · وهكذا ضد من يثور الانسان ؟ انه يثور ضد نفسـه وضد اخوانه الابرياء ·

وهكذا تكون الثورة ثورة الشعب ضد نفسه لعدم تفهمه للحقيقة· وكما ان الثورة هي ثورة الانسان ضد نفسه هكذا تكون الثـورة الاجتماعية ثورة الشعب ضد نفسه · وهكذا تقودنا الخطى الى بحث مفهوم الطبقات الذي هو صراع الانسان مع المجتمع وصراع المجتمع ضد المجتمع ·

- ٢ -

نقد مفهوم الطبقات

رأينا كيف أن جهل الانسان أدى الى صراعه مع نفسه وأخيرا أدى للثورة · وهكذا تكون الثورة هي ثورة الجهل واللاوعي · وبما أن الحياة حلقة لاتنتهي من المفاهيم لذلك أوجدها الانسان كنتيجة لجهله حقيقته وخلقه لقيم عدت من ابداعه وتكوينه ·

بما أن الانسان أوجد القيم والمفاهيم لذلك أوجد صراعا آخر هو صراعه مع المجتمع · وهذا الصراع ناتج عن صراعه مع نفسه لجله الحقيقة · وكيف يمكن للانسان أن يصارع المجتمع ؟ لقد قلنا أن الانسان يدأب وراء مطالبه وحاجاته · وهذه الحاجات صادرة عن خلقه المفاهيم · وهكذا تكون المفاهيم هي النتيجة التي يفتش عنهـا الشخص لانـــه خلقها · ولكنه لا يستطيع أن يحقق المفاهيم التي أوجدها وهكذا يثور ويصارع ضد المجتمع أو ضد العوامل التي تقف أمامه وتمنعه عن مثل هذا التحقيق · وماهي العوامل التي تقف أمامه؟ هي العوالل الاجتماعية المشكلة من قوى المجتمع · هي أعمال الغير ومفاهيمهم · اذ ان المفاهيم بما انها خلقت بواسطة الانسان يجب أن يخضع لها طالما انه لا يفهمها جيدا وطالما انها صدرت عنه نتيجة لخروج الذات عن دائرة الحقيقة · وهكذا يجب أن تؤدي هذه المفاهيم الى صراع الفرد مع المجتمع ·

عندما يجد الفرد أن مفاهيمه أو بالاحرى مطالبه لا تتحقق يثور · ويكون قد مر في مرحلتين : الاولى هي ثورته ضد نفسه لانه جهـل

حقيقته والثانية ثورته ضد المجتمع لانه لم يستطع أن يحقق المفاهيم المتجسمة بمطالبه التي خلقها · وهكذا يرى أن المفاهيم المسيطرة على المجتمع قادرة أن تحطم ذاته ولذلك يعمل على صراعها · فاما انه ينتصر وينال مايريده بواسطة الخداع وهو الطريق الوحيد لتحقيق الذات ، أو انه يفشل ويرى أن كل شيء باطل وقبض الريح ويعلم ، لدى فشله ، ن المفاهيم التي خلقها هي أوهام الذات وخيالات المادة·

ولكن النتيجة الحتمية لمعظم البشر هي انهم يثورون لعدم تمكنهم من تحقيق مطالبهم ومفاهيمهم · وهذه المفاهيم متجسدة بالقوى الاجتماعية من وظائف وأعمال ولذلك ندعوها بالقوى الاجتماعية · وهكذا يسير الانسان وراء مارسمه هو وماخلقه·لانه لايمكنأن نتصور المفاهيم بشكل نتائج وقوى اجتماعية دون أن نتصور الفرد وعمله المستمر للحصول على مايريد · والمفاهيم تكون نزعة لانسان للوصول · والوصول عنده هو الطريق الذي رسمه لكي ينتصر على ذاته · ولكنأهدافه وطريق الوصول صادر عن ذاته · لذلك لاتتحقق مطالبه الا بفرض الذات أي السيطرة ·

نعلم هكذا أن النقطة الثانية عند الانسان هي ثورته أو صراعه مع المجتمع لانه لم يستطع أن يحقق مطالبه الصادرة عن الذات · وهكذا يبقى في حيرة دائمة حتى لو استطاع أن يحقق مطالبه فانه يطلب المزيد لان مطالب الذات لا تقف عند حد طالما أنه ليس لها جوهر تعبر عنه · ويبقى الانسان في ثورة دائمة مع المجتمع لايقف عند حد ولا ينتهي الى مصير ·

* * *

لكن المسألة لاتقف عند هذا الحد في المجتمع · اذ أن مشكلة صراع الانسان مع نفسه هو نتيجلة جهله وخلقه مفاهيم وقيم من عنده · وصراعه مع هذه القيم أي مع المجتمع لا ينتهي عند هذا الحد · وذلك لان المجتمع لا يقف عند حد نقول ان الفرد يصارع فكرة المجتمع · ولذلك نرىأن المفاهيم الاجتماعيةكالثروة والجاه والسيطرة محدودة · أي أن الانسان يبتغي احداها ان لم يكن كلها · وطالما ان هذه القوى قليلة لذلك يجب أن يكون عدد من يستولي عليها قليلا · وهكذا لايستطيع كل فرد أن يكون غنيا ، ولا يستطيع أن يكون كل فرد ذا جاه وقدرة · وهكذا تنقسم المفاهيم فتتباعد وتتقارب ، ويتقارب الناس من بعضهم ويتباعدون · فمن يميلون الى الغنى تظهر عليهم بوادر مفاهيم متقاربة ، ومن يميلون للسلطة تبدو عليهم بوادر مفاهيم وقيم متقاربة الخ ·وهكذا ينقسم المجتمع الى قيم ومفاهيم تتقارب أو تتباعد حسبما يكون تضارب المصالح والاعمال الاجتماعية · فينقسم الناس نتيجة لمفاهيمهم ويسعى البعض لتحقيق المفاهيم لا لتحقيق كيانهم · وعندئذ يصارع المجتمع ذاته· ونكون قد توصلنا الى الدرجة الثالثة من الصراع وهي صراع المجتمع مع ذاته ·

بما أن الانسان يصارع المجتمع وبما ان المجتمع مؤلف من المفاهيم التي خلقها الانسان لذلك يجب أن تنقسم المفاهيم بتقسيم الاعمال وتكون النتيجة أن ينحاز الناس عن قصد أو غير قصد الى احداها · رغم انه لايمكن أن نقول أن المفاهيم تختلف طالما ان الدافع اليها واحد ·

ان من يتوق للجاه أو للسلطة أو للغنى تدفعه ذات واحدة ·

فالدافع هو واحد لكنه يختلف في التعبير ، رغم أن المفهوم الدافع هو واحد · ان نزعة الانسان لتحقيق ذاته اللاواعية تدفعه لان يحقق مطالبه بأي شكل كان طالما انه يرغب في اقتناء السبل والنتائج التي يؤدي اليها دافع تحقيق الذات · وهكذا تكون الدوافع والمفاهيم نتيجة لتحقيق الذات ·

وهكذا تنقسم المفاهيم : فمن جهة نجد الغنى ومن جهة أخرى نجد الفقر ، ونجد السلطة ونجد الخضوع الخ · لان وجود مفاهيم وقيم قائمة على تحقيق الذات يؤدي الى وجود قيم تحطم الذات طالما انه لايمكن بناء الذات التي لم تحقق امكانياتها كالذات التي حققت امكانياتها ودوافعها · وهكذا يوجد التناقض بين المفاهيم وتتكون الفئات الاجتماعية ·

الانسان في هذه المفاهيم لا يصارع الانسان بل يصارع المفهوم · واذا كان ان الانسان يصارع غيره فليس هذا دليلا على أنه يكره الغير · ان المرء يكره غيره لان الغير أصبح وسيلة لتحقيق المفهوم · واذ يكره المفهوم فانه يكره الانسان الذي أصبح وسيلة للمفهوم · واذ يجب أن يكون الانسان هو سيد المفهوم ، يصبح عبداً له ·

* * *

ان مايدعوه ماركس بالطبقات ليس الا وهما لان الناس عندئذ لا يفكرون بالطبقة كطبقة قائمة بذاتها بل يفكرون بالمفهوم القائم وراء هذه الفئة من الناس أو تلك الذين يتبنون مفهوما وقيمة معينة للذات · نحن لا نكره الانسان بل نكره الشر الصادر عنه · وهكذا فان اصلاحه يجب أن يكون اصلاح أعماله من خلال نفسه لا القضاء

عليه . طبعا اذا قضينا عليه نكون قد قضينا على شره ولكن نكون قد احيينا الشر في غيره كما نكون قد قتلناه ، بينما لا يمكن القضاء على شره الا اذا وجهناه نحو الخير وعندئذ نقتل المفهوم ولا نقتل الجوهر .

وهكذا لاتوجد طبقات بل توجد مفاهيم . وماندعوه بالطبقة ليس الا خيال الانسان وتصوره وجود قوى اجتماعية تدفعه نحو أعلى السلم الاجتماعي أو تنخفض به . وهكذا لا تكون المفاهيم صادرة عن فهمه انه انسان عظيم وعظمته لا تعتمد على فقره أو غناه ، بل على مقدرة تحقيقه لنفسه .

فالطبقة اذن هي جماعة من الناس يعتقدون ان مفهومهم يبرهن عن وجودهم الاجتماعي . وهكذا لاتكون الطبقة طبقة بحد ذاتها بل تكون تصور الانسان الناتج عن ذاته وانه يكون ذاتا اجتماعية مقابل ذوات أخرى . ان حب السيطرة يزول لو كان الانسان لوحده ، والغنى يزول لو كان الانسان لوحده ، وهكذا تزول المفاهيم كلها لو فهم الانسان نفسه . وهكذا اذن لا توجد طبقات بل توجد مفاهيم يحاول المرء أن يصل اليها ويحققها معتقدا انها تبرهن عن واقعه كانسان ؟ ولكن في الواقع تعبر عن واقعه كذات غير واعية . ولا تكون الطبقة سوى مفهوم يسعى اليه المرء ويحاول أن يحقق مايستطيع لكي يشار اليه بالبنان ويعد مفهوما اجتماعيا بحتا .

* * *

والنقص الفظيع الموجود في الشيوعية هو ربط الثورة بالطبقة. لقد افترض ماركس وجود الطبقات أولا وافترض ان زوالها يتم بالثورة ولكنه لم يفترض وجود الطبقات كنتيجة للثورة التي

قامت عند المرء نتيجة الجهل . وهكذا لايخرج ماركس عن التناقض ووجود الصراع غير الواعي والمدمر . لقد افترض تناقض الطبقات ولذلك يجب أن يؤدي الى صراع ، لكنه لم يفترض وجود الصراع عند الانسان ولم يفترض أبدا كيفية ازالته ، وهكذا لم يستطع أن يجد الحل في ازالة الصراع عند الانسان اذ أن ازالته يؤدي الى زوال كل مفهوم اجتماعي يؤدي لصراع المفاهيم أي الى صراع الافراد لانهم أصبحوا الوسيلة ، والوسيلة تكون غير واعية . ويكون الانسان ، بما انه الوسيلة ، هو الاداة التي لا تعي .

ويكون صراع الطبقات ، بما انه نتيجة لصراع الانسان مع نفسه ، هو صراع الجهل . وبما أن الناس عبارة عن أفراد يسيرون وراء القوى الاجتماعية ومؤسساتها لذلك لا يوجد سوى المفهوم لانه لا يعقل أن ينتقل الانسان من طبقة لاخرى بل ينتقل من مفهوم لآخر . ويستنتج أن المرء يعمل قبل كل شيء ويسعى أن يحقق مفهومه . ويؤدي هذا المفهوم الى استلام زمام أمره فيقول : أنا كذا.. وهذا يعني انه أصبح عبدا للمفهوم ولم يعد يفهم ويعقل حقيقته . وهذ هي الذات التي تعمل دون وعي وفهم .

* * *

لقد درست مفهوم الطبقات من جانب القيم التي تتجسد بمطالب وحاجا تالانسان . وسنرى الآن أن وجود الطبقات لايمكن ان يعبر عن حقيقة حتى ولو اعترفنا بوجود الطبقة .

تقول الماركسية ان طبقتين تتصارعان : الطبقة التي عندها والطبقة التي ليس عندها . ويمكن ان يؤدي هذا الصراع الى طبقة

متوسطة · ولو تجردنا عن حقيقة المفهوم وان الطبقة هي مفهوم وقيمة ولا معنى لها الا كنتيجة لتفكير الانسان ، نستطيع أن نقول عندئذ ان الطبقة لايمكن الا أن تكون نظرة عند الانسان · واذا كانت الطبقة نظرة (وهذه حقيقة واقعية لان معظم الناس يريدون أن ينتموا الى عائلة ذات اسم رنان) فلا يمكن أن تكون هـذه النظرة الا نتيجة انعكاس الانسان على حياته الاجتماعية · فرغبتي أن أكون طبيبا أو مهندسا أو محاميا تتوقف على مدى ماتقدمه لي الظروف وعلى مدى ما أرى في الوظيفة أو المهنة من مفهوم · اني أفضل مهنة على أخرى لانها تتضمن مفهوما أقوى من غيرها · وتختلف المهن لانها تعتبر مفاهيم اجتماعية قادرة على ملء الفراغ الاجتماعي · وهكذا تكون مهنتي هي نظرتي للامور الاجتماعية وأخذها بعين الاعتبار · ولا يكون ميلي الا لتوفر مقومات المهنة التي أريد أن أكونها · وهذه النظرة لاتخرج عن كونها مفهومي الخاص الصادر عن المفهوم المتجسد للمهنة أو للعمل الذي أبتغيه · وهكذا نجد أن الطبقة ، حتى ولو اعتبرنا وجودها ، ليست الا النظرة التي يتجسد فيها المفهوم الاجتماعي العام · فالطبقة اذن هي مفهوم اجتماعي · والمفهوم الاجتماعي ليس الا الصراع القائم بين الناس لتحقيق مفاهيمهم التي خلقوها · وهكذا يكون الصراع صراع القيم والمفاهيم لا صراع الطبقات ، ولا يكون الناس الا الوسيلة ·

وأما القول انه لا توجد سوى طبقتين فقول خاطىء لانه طالما ان المفاهيم هي التي تسير الانسان لشق طريقه والعمل على ايجاد باب للمعيشة ولتحقيق وجوده الاجتماعي المتمثل في الذات ، يكون المجتمع طبقات متعددة تنافس بعضها · فاذا قلنا أن المفاهيم الاجتماعيةتتدرج من واحد الى مائة ، نعلم أن المجتمع يمكن تقسيمه الى فئات تتدرج

من الواحد حتى المائة ، ولكن اذا كان المجتمع مؤلفا من مائة شخص مثلا فلا نستطيع أن نقول ان طبقتين فقط تقتسمان المئة شخصا لان القوى الاجتماعية المتمثلة بالمفاهيم والقيم المتجسدة بالذات تعمل على اظهار ارادة المائة شخص والعمل على تحقيق ذواتهم · فلا يمكن عندئذ تقسيم الطبقات الى اثنتين أو ثلاثة لان القيم والمفاهيم لا تقتسم طالما انها تؤدي الى نفس الهدف · فاذا قلنا ان شخصا ينتمي الى الطبقة الفقيرة فلا نعني شيئا بهذا القول لان نفس الشخص ، رغم انه فقير ، ينتمي الى مفهوم الغنى لانه يتمنى أن يكون غنيا وهكذا اذن يعد من الطبقة الغنية · وهكذا نبرهن على أن الطبقة هي المفهوم الذي نتبعه لكي يحقق الذات الجاهلة · ومن يكون من طبقة لا يبرهن انه منها لانه يرغب دوما ان يحقق ذاته ، وتحقيق ذاته هو تحقيق مطالبه · وهذا التحقيق وتلك الرغبة هما المفهوم الذي يقف وراء الذات · ويكون المفهوم ذاته مشتركا بين الجميع · ولا نقول عندئذ الا ان مفهوما واحدا يسيطر على المجتمع هو مفهوم الذات وتحقيقها · وهذا شيء موجود تقريبا عند كل شخص ·

والمجتمع المؤلف من مائة شخص ينتمي الى نفس المفهوم ولكنه يختلف بالواقع الاجتماعي وبالنسبة للمفاهيم · فاذا كان قسم منه يؤلف نسبة من الاطباء ، والمحامين ،والاساتذة والعمال الخ · فلا نستطيع أن نبرهن أن كلهم ينتمون الى طبقة ولانقدر أن نقول الى أية طبقة ينتمي البعض ولماذا · وذلك لان الناس يختلفون حتى في الدرجة الاجتماعية التي يمثلونها ، وهكذا توجد درجات للمفاهيم· هناك فرق بين المحامي المشهور والثري والمحامي الفقير ، وبين الطبيب الثري والطبيب الفقير الخ · وهكذا تكون المفاهيم نسبية في المجتمع وتقوم على درجات معينة · فالمائة شخص لا فرق بينهم في المفهوم ولكنهم يختلفون في تطبيق المفهوم حتى في نفس الدرجة والمفهوم الذي ينتمون اليه ·

وهكذا اذن لايمكن القول ان الطبقة هي قياس وجود صراع بين الناس على أساس الطبقات. والثورة لا تكون بين طبقة وأخرى بل تكون صادرة عن أناس لايعون ماذا يفعلون ، يجمعهم مفهوم واحد لا يريدونه (لان الفقير لا يريد أن يكون فقيرا) ويثورون ضد من يلحق بهم من أذى ومن يعيق مطالبهم . ولا يجدون سوى غيرهم من الاغنياء الذين ينتمون الى مفهوم آخر . ولكن الفئة الاولى المؤلفة من مفاهيم ودرجات متعددة لا يثورون ضد جميع الاغنياء لان الاغنياء أنفسهم يختلفون في الدرجة والمفهوم . وهكذا ، كيف يمكن أن نقول أن طبقة تقوم ضد طبقة ؟ أو أن مفهوما يثور ضد مفهوم آخر طالما أن المفهوم ذاته ينقسم الى درجات مختلفة ومتباينة ؟.

لاتوجد طبقات في المجتمع ، توجد المفاهيم المضطربة التي تختلف في درجة اضطرابها وفوضويتها ويخضع من يتبعها لهذه الفوضى . لقد نشأت هذه المفاهيم من مجرد عمل بسيط هو صراع الانسان ضد نفسه (أي اضطرابه وجهله) وأدى الى صراعه مع المجتمع أي مع المفاهيم الاخرى التي تزاحمه (أي تذمره الدائم) وأخيرا أدى الى صراعه مع المجتمع أي وجود اضطراب دائم في الحياة الاجتماعية لايهدأ ناتج عن اضطراب الانسان الاول الذي هو المشكلة الرئيسية والتي تبرهن على أن الانسان لا يعرف ماذا يريد .

ومايبرهن على أن الطبقة غير موجودة وانه لاتوجد طبقتان فقط هو أن في الانسان نفسه مفهومين متضاربين . وهذا ما أدى الى صراعه مع نفسه لكي يجد الحقيقة . وتفتيشه عن الحقيقة التي تنكر لها يبقى موجودا ويحاول أن يجدها في المجتمع أي في المفاهيم التي أوجدها ولكنه يجد أن الاضطراب والفوضى تسودان المجتمع لانه نظام قائم على الاضطراب الذي وقع به واظهر فيه صراعه مع نفسه .

- ٣ -

نقد مفهوم الملكية

تتدرج الشيوعية من مفهوم الثورة حتى تصل الى مفهوم الملكية. ولقد جعلتها من أسسها ومبادئها لانها مدعاة للمساواة بين الافراد. فيجب أن أبحث الملكية من وجهة علاقتها بالطبقات لانها ـ كما تعتقد الشيوعية ـ من الاسباب الرئيسية لوجود التفرقة بين الناس .

ماهي الملكية ؟ الملكية هي كل مايملكه الانسان . لذلك لاتنحصر في الزراعة كالارض أو في الثروة كالمال أو في العبقرية والفكر كالهندسة والطب والحقوق . الملكية فرع من فروع المقدرة على العيش . وبما ان المقدرة على العيش درجات لذلك هي درجات . تتدرج من الفقير المعدم حتى تصل الى الغني المتخم . ولا نستطيع أن نحدد درجات الملكية لانها هي الدرجة التي يكون فيها الانسان مالكا لشيء مادي أو معنوي ، وقادرا أن يضع تلك الملكية موضع التنفيذ .

وهكذا لا تكون الملكية الزراعية اساسا للتفرقة بين الناس ، ولا تكون الثروة النقدية ، ان كانت مستثمرة في التجارة أو في الصناعة أساسا للتفرقة وعدم المساواة ، بل ان الملكية ، بما انها القدرة على العيش بالنسبة لامكانيات الانسان ، لذلك فهي وسيلة للحياة ولتحقيق عناصر الوجود المادي والمعنوي .

ماهي الملكية ؟ الملكية هي مفهوم القدرة على العيش بالطرق

الممكنة · المزارع الغني يعتاش من زراعته أو ريعه ، والصناعي من صناعته ، والموسيقي من فنه ، والرسام من لوحاته ، والمهندس من ذوقه ، والمحامي من دفاعه الخ · وهكذا تكون الملكية هي القدرة على العيش ·

وكيف يمكن ان تكون الملكية وسيلة صالحة لتشييد مجتمع صالح طالما انها القدرة على العيش ؟

لقد قلنا ان الملكية هي القدرة على العيش أي مايملكه الفرد كمقياس لمعيشته · فالمزارع يعتاش من زراعته أي من ملكيته · وملكيته تتكون من الارض التي يحرثها ومن مهارته في تحسين الانتاج واكثار المحصولات · وهكذا تكون ملكية المزارع مؤلفة من درجتين : الارض كعامل أساسي للملكية والمهارة كعامل مهم أيضا بالنسبة للانتاج · والمسألة تقع في مشكلة تحسين الانتاج وكيفية حراثة الارض · وهنا نصل الى درجات مفهوم الملكية ·

لا يزرع المزارع الكبير بيده بل يزرع بيد غيره · وهكذا لا تكون له مهارة أو خبرة أو مفهوم للملكية · والارض عندئذ لا تكون قادرة كعنصر ملكية أن تقدم مايحتاجه ومايتوخاه المزارع الكبير ولذلك فهي عنصر فاسد في هذا المجال · ولكن أين تقع ملكية ذلك المزارع ؟ انها تقع في مفهومه للملكية ·

وماهو مفهومه للملكية ؟ هو تقدير مايعتاش منه بأية وسيلة كانت · لقد قلنا ان الوسيلة هي مهارته أي مقدار مايضع من عمله ومقدرته قيد التنفيذ لتحسين الانتاج · لقد توضحت المسألة الآن بأن ملكية المزارع ليست الا وسيلة عيشه وهكذا تكون الملكية قد تبدلت من مفهوم صحيح الى مفهوم خاطىء ·

ماهي الملكية الصحيحة ؟ لقد أظهرنا أن الملكيـة هي الوسيلة التي يعتاش منها المزارع أو صاحب الارض أو الصناعي أو التاجر . اذن هي المفهوم الذي يعتنقه الانسان لكي يحقق وسيلة عيشه وبالتالي امكانياتـه وقدرته عـلى العيش ، مهمـا تكن الوسيلة . وماهي الوسيلة ؟.

الوسيلة هي الطريق أو المنهاج الذي يتبعه المرء للحصول عـلى الشيء أو بالاحرى هو المفهوم الذي يسـير عليـه المرء لكي يحقق مايحتاجه . اذن هي الحاجة الرئيسية وبالتالي الهدف الذي يريد تحقيقه . وهكذا هي المفهوم الذي يريده الانسان ويحاول تحقيقه . وماهي الحاجة ؟

الحاجة هي المطالب التي يرغب بها الفرد . اذن هي الفكرة أو المفهوم الذي يصبو أن يحققه . وهكذا فالملكية مفهوم يعمل لاجله الانسان . واذا كانت الطبقات مرتبطة بالملكية أو بالمقابل ، فلأن المفهومين واحد رغم التباين الفكري القائم بينهما . وكيف يمكن أن تكون الملكية مفهوما ؟ ولماذا يريد الانسان أن يمتلك ؟

يريد الانسان ان يمتلك لكي يحقق شيئا من ذاته. وارادة الملكية هي ارادة تحقيق الذات . يريد الانسان أن يملك لانه يريد أن يظهر ذاته كحقيقة اجتماعية أي ليعبر عن مفهومه الاجتماعي ، ولانه بواسطة الملكية يقدر أن يبرهن عن واقعه . وهكـذا تكون الملكية وسيلته الوحيدة لاظهار مفهومه المتعلق بالذات . وكلمـا كثرت ملكيتـه ، المعنوية أو المادية ، كلما ازدادت أهميته الاجتماعية وكلما برهن عن وجوده كذات اجتماعية قوية ومسيطرة . تكون الملكية اذن المفهوم الاجتماعي عند الانسان لكي يحقق ذاته .

وكيف تكون الملكية مفهوما اجتماعيا لتحقيق الذات ؟

أنا لا أريد أن أملك الا لاجل مفهوم موجود بذاتي وهذا المفهوم هو ارادتي الاجتماعية التي أحاول فرضها على المجتمع لاظهر مقدرتي « الذاتية » · وهكذا تكون الملكية هي الوسيلة والقدرة على العيش ، ويكون ما أملكه هو المفهوم لوجود ذاتي في المجتمع · وكيف يوجد هذا الوجود الذاتي غير الواعي ؟

لقد قلنا ان المطالب ، بما انها مفاهيم ، تعبر عن واقع الحياة الاجتماعية كتحقيق لذات الانسان · وهكذا يريد الانسان · يريد أن يظهر مقدرته المتفوقة ، ولا يقدر ن يظهرها الا بوسيلة أو مفهوم يشير الى وجوده كذات · وهكذا تكون الوسيلة الاجتماعية الوحيدة التي تظهر الذات كوجود ايجابي في المجتمع هي الملكية ·

* * *

ليست الملكية مفهوما بسيطا قائما على الزراعة أو الصناعة لان أناسا عديدين لا يملكون مثل هذه الملكية · وهل يكونون عندئذ بدون ملكية ؟ كلا تكون ملكيتهم كل ما يملكونه كمقدرة للعيش · فيكون الغنى عند الموسيقيين والرسامين هو القدرة على العيش · ويكون الخيال المبدع عند الكتاب هو القدرة على العيش ، ويكون الطب ، كفن الجسم ، هو المقدرة على العيش عند الطبيب · وهكذا تكون ملكية هؤلاء هي مقدرتهم على كسب عيشهم · وهكذا لا تكون نتيجة للارض أو الصناعة بل تكون مفهوما لامتلاك وسائل العيش ·

ولكن ماذا يقع وراء الملكية ؟ لا يقع وراء الملكية سوى المفهوم ·

فكما قلنا في بحث الطبقات أن الطبقة أو المطالب هي الوسيلة لوجود المفهوم ، هكذا لاتتكون طبقة بل يتكون مفهوم · كذلك الملكية لاتقوم الا على أساس المفهوم ، وبالتالي هي المطالب المتجسمة بمفهوم الملكية أي تحقيق المقدرة على العيش · وهذا هو تحقيق الذات عند الانسان· وهكذا تكون الملكية ، المادية أو المعنوية ، هي اظهار الذات الغير واعية واظهار الوجود الفردي في الاطار الاجتماعي بأنه قادر على أن ينتصر على كل عقبة أو انه صاحب الامر في الموضوع ·

ولكن ما علاقة الملكية باظهار الذات في المجتمع ؟

طالما ان الانسان يعمل على تحقيق ذاته لذلك يعمل على اكمال كل عناصر الذات · وأعظم عنصر للذات هو الملكية · في الملكية تتحقق كل امكانيات المادة المتجسدة في الذات · فالملكية اذن توجد في المفاهيم التي أوجدها الانسان نتيجة لخلقه وابداعه بعد فشله في فهم نفسه · وهكذا تكون الملكية عنصرا من عناصر تكوين الذات ، وهكذا تكون مفهوما اجتماعيا ·

فالذات تحاول تحقيق وجودها بكل وسيلة ممكنة ·والملكية هي الوسيلة المباشرة لهذا التحقيق · وهكذا تصبح المقدرة على العيش أي تحقيق الذات في اطار تحقيق السبيل المادي عند الانسان · وتكون الملكية مظهرا من مظاهر المفاهيم التي تتبعها الذات لتحقيق هدفها · ولا يمكن أن نجد حقيقة في الملكية لانها نتيجة لخلق الانسان وابداعه حين فشل في ادراك جوهره · فالملكية اذن هي مظهر سافل لتحقيق الذات في أجمل صورة مادية تعبر عن اللامبالاة والعظمة الاجتماعية وحب الظهور · وهكذا تؤدي الى مفهوم الطبقة أو الائتلاف الاجتماعي لانها أصبحت وسيلة الكبرياء والعظمة ·

وكما رأينا انه لا توجد طبقة في المجتمع بل يوجد مفهوم يعمل على اظهار ذات الانسان (ليس كيانه) في اطار اجتماعي فخم على أساسه يصل الى تحقيق أهدافه في المجتمع . وتكون الملكية عندئذ هي أقرب وسيلة لادراك هذا الواقع المؤلم . فهي اذن مفهوم اجتماعي قائم على تحقيق الذات . وهكذا تقوم على أساس اللاوعي . وهكذا نرى أن الانسان الذي يبتغي النبل الاجتماعي يحاول أن يحقق مظهرا اجتماعيا ؟ وتكون الملكية وسيلة بادىء الامر وبعدئذ تنقلب الى هدف بحد ذاته يعمل على تحقيق المادة المجسمة بالذات .

ولذا نرى أن عظماء العالم الحقيقيين (وليس القادة المتنفذين) لم يأبهوا بالملكية لانهم لم يجدوا فيها حقيقة انسانية ، بل حاولوا ان يطبقوا مفاهيمهم الانسانية الصادرة عن كيانهم . وتحقيق الكيان لا يتطلب تحقيق المفاهيم المادية المنبثقة عن الذات .

* * *

هكذا يقوم صراع بين الناس لاجل الملكية ،وذلك لانهم يعتقدون انها وسيلة لتحقيق العدالة والمساواة ولانها أساس للتفرقة . وبما انه لا يمكن ايجاد مساواة في ماندعوه بالمقدرة على العيش لذلك نجد الصراع القائم بشكل ائتلافات أو خلقات اجتماعية تعمل على تهديم بعضها البعض وهذا مايؤدي الى مبدأ التناقض بين العناصر الاجتماعية التي تؤلف المجتمع والتي تسكبه في قالب من العنف والصراع والانقسام .

هنا كان خطأ الشيوعية . لقد أدركت أن الملكية يجب أن تزول ولكنها اعتمدت على القوة ، أي ذات مبدأ الصراع ، لازالتها . لقد رأت ان التناقض قائم بين جميع الفئات الاجتماعية التابعة لمفاهيم معينة فاستنتجت مايلي :

١ ـ اختلاف الملكيات وعدم التساوي بينها ٠
٢ ـ ازالة عدم التساوي أو الفروقات ٠
٣ ـ كيفية ازالة الفروقات ٠

١ ـ القضاء على الملكيات الكبيرة ٠
٢ ـ تجريد الجميع من الملكية ٠
٣ ـ اعادة توزيع الملكية بشكل ملكية جماعية ٠

لكن خطأ الشيوعية ظل موجودا كما يلي :

١ ـ ازالة الفروقات بالقوة ٠
٢ ـ عدم تفهم سبب الملكية وجوهرها ٠
٣ ـ ايجاد مفهوم جديد للملكية يقوم على تحقيق الذات أيضا ٠

وهكذا نحصل على النتيجة التالية :

١ ـ عدم حل مشكلة الملكية القائمة على مفهوم الذات ٠
٢ ـ تحقيق الذات بنفس الوسيلة ، فعوضا أن تكون فردية أصبحت جماعية ، وهكذا لم يتدل أي مفهوم للملكية أو القدرة على العيش ٠

لم تتفهم الشيوعية أسباب الملكية بل وجدت ان هناك تناقضا في المظاهر التاريخية والاجتماعية ٠ لذلك عملت على تهديمه وبنت عملها هذا على تقويض العهود القديمة والمفاهيم القديمة وايجاد مفاهيم جديدة ٠ وهكذا قوضت المفاهيم القديمة بالديكالكتيك ٠ فأوجدت الظلم في الملكية وعملت على ازالته وتحقيق العدالة ٠ وهكذا حطمت المبادىء القديمة واقامت مفاهيم جديدة بنفس الوسيلة التي تم بها تحقيق المفاهيم القديمة ، أي القوة ٠ وهكذا يكون ديالكتيك الشيوعية قائما على أساس التناقض ولم يقم على تفهم مفهوم الملكية ، وهكذا لم

تحل المشكلة بل أوجدت مفهوما جديدا لها · وهنا تقوم مساوىء أكثر للملكية لانها قامت على وجهات نظر خاصة ·

وكيف لم تعمل الشيوعية على حل الملكية وتفهم جوهرها ؟

لقد قلنا ان الملكية هي نتيجة لمفهوم الانسان ، لتحقيق ذاته ، وهكذا يعمل الفرد كي يحقق كل امكانيات وجوده المادي · وبما ان الملكية مفهوم ، اذن هي نتيجة خلق الانسان غير الواعي · وهكذا قامت على الجهل التام لكيانه · وهكذا نتوصل الى ديالكتيك الملكية الحقيقي الذي يناقض ديالكتيك الشيوعية ·

١ ـ يعتمد خلق الانسان للمفاهيم وابداعه لها على أساس جهل حقيقته ·

٢ ـ أدى جهل الانسان الى وجود منطق أو ديالكتيك أي تبرير لذاته ·

٣ ـ تحقيق الذات يجب أن يعتمد على عوامل تحقيق الذات ·

٤ ـ عوامل تحقيق الذات هي كل مظهر اجتماعي أو مفهوم يعمل على اظهار الذات بشكل عظيم في المجتمع ، بشكل مشرف اجتماعيا ، بشكل قدرة ·

٥ ـ تكون الملكية اذن القدرة على العيش أي تحقيق الذات في اطارها المادي ·

هذا هو الديالكتيك الايجابي للملكية · أما الديالكتيك السلبي هو كما يلي :

١ ـ ايجاد مفاهيم وقيم مختلفة نتيجة لابداع الانسان نتيجة جهله ·

٢ ـ عدم التوافق بين هذه المفاهيم ٠
٣ ـ تناحر هذه المفاهيم بشكل فردي واجتماعي ٠
٤ ـ عدم وجود حقيقة اجتماعية ، أي عدم وجود الاستقرار ٠

هذه هي مراحل الملكية ومفاهيمها بالنسبة للصراع القائم بين الناس ٠ ولكن كيف يمكن حلها ؟ ان حل مشكلة الملكية هي نتيجة حل مشكلة الانسان ، وتكون هذا :

١ ـ تفهم الانسان لحقيقته كجوهر انساني حق ٠
٢ ـ بناء مفاهيم الانسان على حقيقته ، على كيانه ٠
٣ ـ تطبيق المفاهيم الانسانية وتركيزها بوعي وحق ٠
٤ ـ اخضاع مفاهيم الذات للكيان ٠
٥ ـ وهكذا لا توجد مشاكل لان الذات تخضع للكيان وتكون جزءا لا يتجزأ منه وتعمل حسب ارشاده ٠

* * *

والآن نصل الى المقارنة بين أخطاء الشيوعية وتحقيق الذات ٠ كما عرفنا أن الشيوعية لا تحقق الا بالمتناقضات القائمة في خلق الانسان ٠ فهي تدرس الوقائع التاريخية كما هي وتحلل الوقائع الاجتماعية كما هي دون تفهم حقيقتها ، ولذلك توجد لها ديالكتيكا وتستنتج شيئا ٠ ودراستها للملكية تدل على انها وجدت تناقضا في مفهوم الملكية ٠ وحاولت أن تقضي على التناقض القائم فأوجدت نظاما جديدا للتناقض يقوم على مبدأ القوة للقضاء على التناقض ٠ لم تعمل الشيوعية اذن على تفهم نفسية الانسان ودوافعه اللاواعية ، ولم تعمل على حل مشكلته وفقدانه في عالم خلقه المتناقض ، بل أخذت الوقائع كما هي ووجدت فيها تناقضات فحاولت أن تقضي

عليها بايجاد ردود فعل عكسية · وهكذا أقامت مبدأها على تناقض التناقض وأوجدت نظاما يعتمد على الذات ويكون امتدادا لسيرها في التاريخ ، نظاما يقوم على خلق التناقضات في التاريخ واعطاء نتائج لها·

رأت الشيوعية أن هناك أناسا يملكون الكثير وأناسا يملكون القليل ، فوجدت أن ديالكتيكها يقوم على وجود ملكية وعدم وجودها· فأوجدت قطبي الديالكتيك · ويجب أن يتصارع هذان القطبان لكي توجد نتيجة حتمية لها · لم تدرس الشيوعية أنانية الانسان وجهله بل درست المفاهيم الذاتية كماهي وحاولت أن تضع نظاما جديدا يعد امتدادا للاول · وماذا كانت نتيجة النظام ؟ كان الصراع بين القطبين، أي حل المشكلة بنفس الطريقة التي بدأت بها ، أي قتال قايين وهابيل· ان قتال قايين وهابيل لم يؤد أبدا الى حل مشكلة الملكية بل زادتها تعقيدا · وهكذا لا يقوم المبدأ الشيوعي الا على التناقض القائم ضمن الذات والنتائج السلبية التي تعتمد عليها · وهكذا لا يمكن أن تكون الشيوعية الا الصراع والتناحر لامتداد الذات بشكل جماعي ·

* * *

عندما أرادت الشيوعية أن تحل مشكلة الملكية لم تدرك الملكية كما قلنا وسبب تهافت الانسان عليها · لذلك عندما أرادت أن تجد حلا للمسألة أخذت تبحث عن حقيقة الملكية · ماهي الملكية التي يجب ازالتها ؟ وعندئذ ازالت الملكية الارضية واقامت الملكية الجماعية · ولكن ماهي أنواع الملكية الاخرى التي وجدتها وحاولت أن تجد حلا لها ؟ وجدت الملكية الصناعية والتجارة فأصبحت ملكا للجميع · ولكن ألم تبق هناك مصادر أخرى للملكية ؟

ينتمي الفلاح للارض كما ينتمي الصناعي للصناعة والتاجر لتجارته. ولكن الام ينتمي الكاتب والموسيقي والمهندس ؟ توجد ملكيات أخرى . فهل حاولت الشيوعية حل المشكلة ؟

كما قلنا أن الملكية هي القدرة على العيش أي امكانية تحقيق الذات . واذا كان الامر هكذا ، فان الملكية يجب أن تعني ملكيات كثيرة . وهكذا تكون عبارة عن تجسيم المفاهيم والقيم الاجتماعية في اطار تطبيق الذات في المجتمع. والمقدرة هنا يجب أن تختلف لانه لا يمكن أن تكون ذاتها عند الطبيب والتاجر والصناعي والمحامي والمهندس الخ. وهكذا تختلف الملكية بالنسبة لاختلاف درجاتها . وتكون هكذا درجة المقدرة على العيش . (لقد تبدل المعنى من مفهوم مطلق للمقدرة على العيش الى مفهوم خاص) .

ماهي الملكية اذن بنظر الشيوعية ؟ ليست هي الا التناقض القائم ضمن نظامها . هذا التناقض الذي يعمل بداخله وبمؤثراته وبعناصره لامتداد لاحد له . وهذا الامتداد هو الشيوعية ، لان العامل الوحيد الذي أيقظ الذات وجعلها تنطلق في خط سيرها كان الشيوعية . فهي لم تحل المشكلة بل زادتها تعقيدا لان الملكية أصبحت قائمة بين الجميع ولا يعرف المرء ماذا يملك أو كيف وحاربت الملكية بعدم التفكير فيها ؟ فهل ازالت الشيوعية الملكية ؟ كلا .

لم تحل الشيوعية مشكلة الملكية لانها لم تقض على درجاتها أي على مفاهيمها . فقد بقيت جميع درجات الملكية ومفاهيمها قائمة في الشيوعية : بقيت الزراعة والصناعة والتجارة والهندسة والطب الخ لقد بقيت جميع هذه المفاهيم وبقيت معها درجاتها . أليست المفاهيم

هي الدرجات ؟ اذن لقد بقيت درجات في الشيوعية أي طبقات · الم يبق التناحر ؟ لقد بقي لانه موجود في النظام ذاته القائم بين الصانع والمهندس · وهكذا فقد بقيت الفروقات قائمة بين المقدرة ، وهكذا بقيت الملكية على ما كانت عليه ، لان الشيوعية نادت بها مرة أخرى · وهكذا لم تحل مشكلة الملكية وأصبحت الشيوعية امتدادا لحركة الذات بشكل جماعي ، أي صراع المجتمع ضد المجتمع بأتم مظاهره ، وهذا الصراع قائم على جهل الانسان لنفسه وصراعه معها ·

* * *

كيف يمكن تفهم الملكية حسب الديالكتيك الحقيقي للانسان ؟

ان تفهم ديالكتيك الانسان قائم على الفهم والادراك ويعود الى وجود نظام انساني ينبثق عن حقيقته · وبما ان الانسان هو كل انسان فان مشكلة الملكية واحدة للجميع · والفرق الوحيد هو مشكلة صراع الانسان ، والملكية هي من نتاج المادة أي الذات · فديالكتيك الملكية الحقيقي هو في صراع الروح والمادة · لقد سئل بطرس الرسول صدقة فقال للسائل : مامعي اياك اعطيه · فماذا كان يملك بطرس الرسول ؟

ان الاختلاف في حيثيات الانسان لا يؤدي الى فروقات بل يجب أن يؤدي الى تعاون ، كذلك الذي يوجد بين أصابع اليد الواحدة التي تعود لجوهر واحد هو اليد · أما الفروقات التي نراها بين الناس فهي نتيجة اختلاف مفاهيمهم القائمة على الذات ، وصراعهم قائم على تطبيق امكانيات الذات وماندعوه بالقدرة والملكية مهما كان نوعها · وهنا يجثم خطأ الشيوعية وهو محاولة تطبيق نظام اجتماعي

جديد لمحو الفروقات القائمة على الذات · ولكن محو هذه الفروقات لايتم الا اذا تفهمنا حقيقة الذات وجعلناها جزءا من الكيان ·

* * *

لا توجد ملكية في الحياة ولا يملك الانسان شيئا في هذا الوجود سوى تفكيره · ان الانسان مؤتمن على كل مايدعوه بالملكية حتى ملكيته الفكرية · وهو مسؤول عن ملكيته العقلية وكيفية التصرف بها ، من نفع وخير أو شر وضرر ، تماما كما انه مسؤول عن ملكيته المادية· وبما أن ملكيته الفكرية هي ملكية الناس وملكيته الحقيقة الانسانية لذلك فالملكية المادية ، التي يجب أن تكون نتاج الملكية الفكرية ، يجب أن تؤدي الى خير الانسانية وليس الى تناحرها · لاتوجد اذن الا جدارة الانسان وقدرته على التفكير · أما العمل اليدوي ومايدعوه بالتجارة والصناعة ليست الا تنمية للذات ، وهكذا لا تعبر عن حقيقة ، ولايمكن أن نعتمد عليها لانها مصدر من مصادر تحقيق الذات · وهكذا ، اعتمدت الشيوعية على الملكية بشكل غير عاقل ·

* * *

- ٤ -

نقد مفهوم التطور

الام يؤدي التطور ؟ هل يسير بنا الى الالوهية أم يعود بنا الى الوراء ؟ وهل التطور هو الذي يسير بنا أم نحن الذين نسير نه ؟ وهل يمكن قياسه بفترة معينة أم أنـه لا يخضع لتحديد وقياسات طالما انه جوهر وله مفهوم واحد ؟

ماهو الانسان بالنسبة للتطور ؟ هل يتطور الانسان والى أي حد سيصير في تطوره ؟ وهل سيصير الى صورة متبدلة عن كيانه ؟ ان كان ذلك ، فالتطور هو تطور الانسان · واذا كان تطوره هـو الذي يحدد كيانه ، اذن فللانسان درجات يجب أن يمر بها · هكذا يكون التطور من ذات الانسان الى كيانه أي من مادته الى روحه · ويكون التطور محصورا في الانسان نفسه · فهو اذن تطور الانسان في وضعه الكائن الى وضعه الذي سيكونه · وعملية التطور لا تخرج عن فهمه · اذن هو تطور الفهم والادراك ·

تطور البشرية لم يكن الا تبدل الذات من وضع الى آخر أي تفتيش الذات عن ذاتها ، ومحاولة ايجاد قواعد ثابتة لها · لم تستطع الذات أن تجد الحل الوحيد لوجودها كذات ولذلك فقد تقلبت في كـل المفاهيم التي خلقتها · وكان عملها هو التنقيب عن طريقة تضع بها حدا لكل مايتراءى لها من خيالات ·

قلنا ان الانسان قد أوجد المفاهيم التي انبثقت عن صراعه مع

نفسه ، أي من جهله لها ، وأدت الى صراعه مع المجتمع ، وأخيرا الى صراع المجتمع ضد المجتمع · وهكذا تكون خلاصة التاريخ هو صراع الانسان مع نفسه ومع المجتمع ، أي وجود المفاهيم المتعددة وتقلبها بأوجه مختلفة تناقض بعضها لانها صادرة عن تناقض الانسان بداخله· وهكذا حاول الانسان أن يجد الحل في التناقضات والمفاهيم التي أوجدها · ولكن كيف يمكن أن يجد حلا فيها أو أن يضع حلا لها طالما أن الحل الوحيد كائن به ، واذا لم يدرك حقيقته وانتصر على ذاته فيستحيل أن ينتصر على مفهوم التاريخ أو التطور ·

وهكذا يكون التطور نتيجة الصراع القائم بين المفاهيم المتعددة ، تلك المفاهيم التي أوجدها الانسان · سيبقى هذا المفهوم قائما طالما أن الصراع قائم في نفسية الانسان · هكذا نستطيع أن ندرس التطور من ناحيتين : تطور المفاهيم الاجتماعية وتناقضها ونتيجة تناقضها ، مفهوم التطور الحقيقي للانسان ·

* * *

يقودنا المفهوم لاول الى دراسة جميع أوجه النشاط البشري ، كالمؤسسات الاجتماعية ، والمفاهيم المتجسمة في الحلقات الاجتماعية، ووجود المفاهيم الاجتماعية المتعددة التي تفرض ذاتها نتيجة للصراع القائم بينها · وهكذا تكون مراحل التاريخ عبارة عن مراحل تناقض المفاهيم ، وتناقض المؤسسات والتناقض القائم في ذات المجتمع · وبما أن التاريخ لا يتوقف على مرحلة معينة من الزمن ، وبما أن المراحل لايمكن أن تكون نفس المرحلة التي مرت ، لذلك لا يكون التطور الا تاريخ التناقض· كانت كل مرحلة تعبر عن كينونتها بوجود واقعها

التاريخي كمرحلة تمتاز بشيء معين ، بينما كانت مرحلة أخرى تعبر عن كينونة تمتاز بشيء آخر · وهكذاتكون المرحلتان عبارة عن مفهومين للصراع لاظهار الذات بمفاهيمها المختلفة · وهكذا يكون التطور عملية انتقال الذات من مرحلة لاخرى · لقد سيطرت الذات في مرحلة وانقرضت بينما احتلت ذات أخرى ، أقامت مفاهيمها الخاصة ، وسيطرت على مرحلة خاصة · وهكذا يكون التاريخ هو انتقال الذات من مرحلة لاخرى ·

لايمكن تسمية انتقال الذات من مرحلة الى أخرى تطورا لانها لم تكن تطورا بل كانت تطبق مفاهيمها التي صدرت عنها منذ خروج الانسان عن طور حقيقته · وهكذا كانت تعيد في كل مرحلة كيفية تطبيقها للوسائل وللطرق المختلفة التي كانت تراها مناسبة · وهكذا يكون التطور شيئا لا وجود له طالما انه لايعني سوى انتقال الذات من حلقة الى أخرى تعكس بكل واحدة منها صورتها ووجودها· ولا تعبر عن كيان لانه ليس من صفات الذات · ولا تقيم مظهرا جديدا للحياة لان مظهرها الوحيد يقوم على خروجها عن حقيقتها واعتناقها مبدأ خلق المفاهيم والقيم · وطالما ان مبدأها لم يتغير عبر الاجيال فلا يمكن تسمية هذا الانتقال بالتطور لان عملية بقاء الذات ضمن اطارها اللاواعي جعلها تعتمد على الفوضى ·

لايمكن تسمية الانتقال من مرحلة الى أخرى تطوراً طالما أنه كان يتم بنفس المفهوم · لقد كانت المظاهر تختلف بالنسبة للشكل الخارجي أما الحقيقة الاجتماعية فكانت تبقى واحدة خلال عبورها في التاريخ · فالتاريخ اذن سلسلة من تكرار الذات لاعمالها بأشكال ومظاهر مختلفة لكن بقالب ومفهوم واحد · وهكذا لا نقدر أن نسمي

مانراه من مفهوم تاريخي بالتطور لانـــه لا يتضمن ايجاد قـــوى وامكانيات جديدة ·

لقد اخطأت الشيوعية في فهم مبدأ التطور · وهكذا أرادت أن تستنتج ، فعمدت الى التناقضات القائمة · لقد عمدت الى استنتاج فكرة من هذه المراحل المتلاحقة · ورغم انها كانت تتكرر بمفاهيمها لكنها كانت تحمل بذور التناقض · وهكذا عمدت الى تفهم الواقـع التاريخي بأنه قائم على التناقض :

١ ـ الواقع التاريخي يظهر تناقضاً ·
٢ ـ التناقض ظاهر في المراحل التاريخية رغم تلاحقها وتكرارها·
٣ ـ التاريخ يجب أن لا يتحمل مفهوم التناقض ·
٤ ـ يجب القضاء على التناقض القائم في التاريخ وخلق فكرة تعبر عن تطور التاريخ ·
٥ ـ وهكذا بدأت الشيوعية بايجاد فكرة · وقبل الوصول الى الفكرة كدرجة أخيرة عليها أن تقضي على كل تناقض قائم في التاريخ · وهكذا أدركت أن تناقض التاريخ يبحث في تلاحق مؤسساته · وهكذا عملت على تهديم تلك المؤسسات واقامة فكرة دائمة · ورغم انها دأبت على تهديم المؤسسات أو المفاهيم التي كانت تحلق في جو المراحل التاريخية فانها أوجدت فكرة لها.

وجدت الشيوعية أن الرق والعبودية والاقطاعية والرأسمالية هي حلقات ومفاهيم ومراحل ستموت وتفنى · انها تتطور نحو الاعلى ، نحو الفكرة ، نحو الاشتراكية فالشيوعية ، وهكذا تكون قد قضت على التناقض في التاريخ وعملت عـلى ابداع واقـع تاريخي واحد نتيجة دراساتها · ونلاحظ مايلي :

١ ـ اذا كانت المراحل تلاحق بعضها فهي مكملة للأخرى وهكذا لايمكن تبديلها لانها نتيجة عمل واحد هو الذات ٠

٢ ـ اذا كانت المراحل تناقض بعضها ، فيجب أن تقضي على ذاتها ٠ ان التطور من الرق الى الرأسمالية ومروره بالاقطاعية يجب أن ينتهي بوجود نظام جديد ٠ وبما أن المراحل كانت تتبع بعضها بواسطة عملية تاريخية بسيطة هي اعادة وتكرار المفهوم في صور ومظاهر متعددة ، لذلك فان النظام الذي سيأتي بعد الرأسمالية يجب أن يكون نظاماً صادراً عن تكرار عملية الذات في المراحل وتأسيس مرحلة جديدة ٠

٣ ـ الكن الشيوعية اخطأت فحسبت ان الانتقال من هذه المرحلة لايتم الا بثورة وبصراع ٠ وهكذا نعلم انها قد ناقضت ذاتها٠ وتناقضها هو انها لم تبق سائرة على المبدأ الذي رسمته ولم تعتمد على ديالكتيكها ٠ اذ أنها بدلت التطور الذي تم تدريجيا من حلقة لاخرى بواسطة الثورة ، ولذلك عملت على قطع الصلة بين الحلقات جميعها ٠ فان كانت العبودية قد انقلبت الى الرق ثم للاقطاع ثم للرأسمالية ، فان الاخيرة لا تنتقل الى الشيوعية الا بثورة ٠ بينما قد تم انتقال الحلقات الاولى بطريقة اجتماعية لا تقوم على الثورة المادية ٠ وهذه فجوة كبرى في الشيوعية ، لانها عندما لم تستطع أن تجد الحل لمفهوم التطور ادخلت مفهوم الثورة كحل جذري ٠ وهذا لا ينطبق مع ديالكتيكها ٠

لقد مرت الانسانية في حلقات كثيرة لم تؤد الى حقيقة أو الى حل حقيقي ٠ وكل الحلقات كانت تتشابه اذ انها كانت تتشكل من

طبقة غنية وأخرى فقيرة ولم تخل المجتمعات من هذا التقسيم الاجتماعي الظالم · ولكن ولا ثورة حدثت ، حتى أن الديالكتيك الشيوعي لم يطبق بأي منها · واذا ثار الناس فانهم يثورون على الطغيان · ولكن الانسان بقي دوماً مقيداً بقيوده هو ، تلك القيود التي خلقها وأبدعها · وهكذا مالم يطور هذه القيود ويقضي عليها فلا امكانية للتطور على الاطلاق ·

٤ ــ ويظهر الخطأ أيضا في أن الشيوعية أعادت الذات الى «ذاتها» · وكما قلنا أن الذات منفعلة وثائرة ، والمفاهيم هي نتيجة صراع الانسان ضد نفسه وضد المجتمع والمجتمع ضد نفسه · وهكذا لم تحقق الشيوعية سوى ناحية الصراع في الذات وسيرها في واقعها المادي · وهذا يدل على أنها لم تخرج عن نطاق الذات ، عن نطاق الصراع الدائم والتناقض ·

٥ ــ اذا كانت الشيوعية قد اتخذت من التطور مبدأ فهذا يدل أن التطور سيسير الى مالا نهاية لانه لا يقف · واذا كان التطور قد اخطأ في الانتقال من الرأسمالية الى غيرها بغير قانونه الطبيعي ، أي بالثورة ، هكذا لايمكن الا أن يصل أخيرا لتطور معين أو خاص بعد الشيوعية لانه من المحتمل أن يقفز قفزة غير طبيعية أيضا فيوجد نظاما جديدا ·

٦ ــ يقوم الديالكتيك الشيوعي على التناقض القائم بين المراحل · ولذلك لايمكن أن يكون خط سيره حقيقيا لانه لايمكن ايجاد حلول من المتناقضات انما يمكن وجود الحلول فقط بالرجوع الى الجوهر ودراسته · واذاكانت المراحل من عمل الذات وهي خط الامتداد لفعاليتها ، هكذا لايمكن تطوير هذه الفعالية الى حد أعلى بعملية تحطيم التناقض الذي قام في تلك الذات · ويمكن الرجوع الى الذات

ودراستها وادراك مقوماتها وعندئذ يمكن القضاء على كل مايصدر عنها نتيجة للصراع القائم في الانسان ٠

٧ ــ لايوجد تطور الا في لانسان ٠ تطوره في عالم الفهم والادراك والمزيد من الحرية ٠ ولا تزداد الحرية الا اذا ازداد الادراك والفهم ٠ وهكذا فالتطور هو السير نحو الكمال بمزيد من الفهم ٠

* * *

ان المفهوم الثاني الذي ندرسه هو مفهوم التطور والانسان ٠ كيف تطور الانسان ؟ وهل تطور للأحسن أم للأسوأ ؟ وهل تغير وكيف ؟ وهل تغيرت مفاهيمه وكيف ؟ وهل لايزال يعالج قضاياه ذاتها ؟ وهل لا يزال يسير على نفس الطريق التي سار عليها الاقدمون٠

لقد قلنا ان صراع الانسان مع نفسه هو نتيجة لجهله ٠ وهذا الجهل أدى الى صراعه مع المجتمع والى صراع المجتمع مع ذاته ٠ ويعود هذا الصراع الى جهل الانسان لحقيقته ٠ فكيف يستطيع هذا الانسان أن يتطور طالما أنه يجهل نفسه ؟

لا يستطيع أن يتطور الانسان لان تطوره لايتم الا عندما يفهم نفسه وعندئذ يسير في طرق كيانه ويصل الى أعلى درجاته ٠ ولم يتحقق هذا الا عند الانبياء والقديسين والفلاسفة والعلماء ٠ ان تطور الانسان لا يتم الا اذا ابتدأ ان يعلم انه يجهل مقدرته وكيانه ٠وعندئذ يعمل على تفهم الكيان والسير في طرقه حتى يلم بحقيقته ٠ ويكون تطور الانسان عندئذ قائما على نفسه أي على تطويرها نحو الاعلى ، نحو حقيقتها ٠ وهكذا يكون التطور شيئا داخليا في الانسان ويصبح الوسيلة الوحيدة للانتصار على الذات التي تعمل دوما ضد الطاقة

الروحية · فالتطور اذن هو المزيد من الحرية ، والحرية هنا هي الانتصار على الجهل ، أي المزيد من المعرفة · وكلما تفتحت أبواب كثيرة من الحرية أي من المعرفة ، كلما تطور الانسان نحو حقيقته · فالتطور هو الفهم والمعرفة ، وبالتالي الحرية والانعتاق من سلاسل الجهل والعبودية الفكرية · فالانسان يستطيع أن يكون حرا ومدركا في أي شكل من أشكال الوجود فهو اذن يستطيع أن يتطور في نفس الاتجاه ·

يبرهن لنا هذا أن الناس لم يختلفوا في ماضيهم وحاضرهم · فالمشاكل هي ذاتها ، والاسئلة ذاتها ، والمسائل التي عالجها الانسان في القديم لاتزال ذاتها : من نحن ، كيف كنا ، من أين أتينا ، لماذا أتينا ، وماهو هدفنا ؟ لايزال الانسان يسأل نفسه ، وربما أصبح يتساءل أكثر لان المشاكل قد زادت تعقيدا · وهذا دليل انه لم يتطور أبدا بل هو لايزال في المرتبة التي انطلق منها · صحيح أن دروب الفكر قد زادت ولكن الفوضى زادت معها ·

* * *

ماهو التطور ؟ ألا يعني شيئا على الاطلاق ؟ لقد أوجدت الذات صراعها وخلقت مفاهيمها وطبقت هذه المفاهيم في العصور المختلفة ، وهذا لا يمكن أن يسمى تطورا · ان تنقل الذات من مفهوم أوجدته الى مفهوم آخر في عصور متباينة لايعد تطورا · اذ ان كل ماتفعله الذات هو انها تعيد تطبيق المفهوم في وقت معين بصورة مختلفة ، ولا يختلف المفهوم بل تختلف وسائل التطبيق ·

فالتطور اذن هو اعادة تطبيق مفاهيم الذات في حلقات متعددة من الزمن · وهكذا تعد الحضارات حلقات من التعبير عن الذات ·

ان كل قرن كان يحمل مفهوما للذات يختلف بكيفية التعبير عن المفهوم الذي سبقه وليس بالجوهر ٠

وماهو هذا المفهوم الذي كان يعبر عنه في كل قرن ؟ هو نفس الصراع والجهل الذي حمله الانسان منذ البدء ٠ وكان يحاول أن يجد وسيلة جديدة وحلا جديدا لمشاكله ٠ فأخذ يوجد فكرة يعتقد أنها صالحة للتطبيق ، ولدى موعد التطبيق يجد أن واقع مافكر به لاينطبق على الواقع الاجتماعي ٠ وهذا يعود الى كون المجتمع مجموعة من المفاهيم التي تناقض بعضها وتختلف بالتطبيق رغم أنها تعود الى الذت ٠

وهكذا يحاول الانسان أن يجد الطريقة الفضلى ! ولكن الافضل بالنسبة له هو الافضل لذاته التي تعمل دوما ان تجد شيئا جديدا تخلقه أو تبدعه أو انها تبحث بين المفاهيم المتعددة لكي تطبق شيئا منها لتحل مشكلتها المستعصية ٠ وتعود الذات لتطبيق نفس المفاهيم ولا تدرك خطأها الا باكتشاف حقيقة تلك المفاهيم وادراك التناقضات القائمة فيها ٠ وهكذا يكون التطور هو الانتقال من حلقة الى أخرى والتعبير عن الذات في أشكال مختلفة ٠

* * *

هذا هو التطور الماركسي : تقلب الذات بين مفاهيمها المتعددة محاولة أن تجد لها حلا ٠ وبما انها لا تستطيع أن تجد حلا بواسطة المفاهيم لذلك تحاول أن تجد مفهوما جديدا هو الثورة لكي تخرج من دائرتها المغلقة وتوجد مفهوما جديدا يسمى التطور ٠ وتبقى الحلقة ناقصة فتكملها بالديكتاتورية وتكون الشيوعية مفهوم التطور الذاتي القائم على عدم وعي الحقيقة ٠

ان تطور الانسان هو فهمه لنفسه ولكيانه وسيره في تحقيق هذا الكيان حتى يصل الى الجوهر الذي انطلق عنه ٠

- ٥ -

نقد مفهوم المادية

لقد مر معنا كيف أن المادية تسيطر على معظم امكانيات الانسان بواسطة الذات · وقد اختلف المفكرون وخلقوا المفهوم المادي والروحي وأوجدوا علاقة بينهما · وكانت النتيجة أن الانسان يعيش في دوامة لاتنتهي من الانفعالات والتناقضات طالما انه لايفهم جوهره ·

كانت هذه المفاهيم من خلق الانسان · وهكذا فقد مال الانسان « المريض » لكل مفهوم مادي وانطلق في عالم المادة حيث يقدر أن يحقق وجوده المادي · ولم يكن قد توصل الى تحقيق الذات بعد · والانقسام الذي وقع بين الروحانيين والماديين لم يكن انقساما حاسما بل قائماً على ترتيبات مختلفة لا تعتمد على اختلاف مطلق ·

واذا كان الماديون قد مالوا للاعتقاد بالمادة لكنهم أوجدوا المادة الواعية التي يسيطر عليها العقل · وليس للعقل حدود في الوجود · وكبر الوجود وعظمته يدعو الى كبر العقل ليسبر أعماق الوجود والكون · فالكون ، وعلى رأسه العقل ، هو المدار الكبير والحقل الواسع الذي يعمل فيه العقل ليستنتج كل حقيقة · وهكذا تبقى المادة واعية لانها صادرة عن العقل الذي يفكر وعن قدرة أو طاقة تعمل لتحقيق وجود المادة وفهمها · وهكذا ، طالما أن الانسان لايستطيع أن يتجرد عن المادة فانه يعمل على فهمها وسبر أغوارها ·

وفيما يتعلق بالروحانيين فانهم لم يحققوا الروح بجوهرها ووحدانيتها لانها موجودة في الكون بقالب المادة · وهكذا تعمل على أساس انتصارها على الذات ورفعها الى الاعلى · وهكذا يصبح الفرد

انساناً عاقلا يترفع على كل مفهوم ذاتي وذلك لانه يفكر · وتتحقق المقدرة الموجودة فيه من جراء تحقيق الكيان المادي كقوة تنطلق في حقل المادة الواسع ومن جراء تحقيق الكيان الروحي الذي يوجه المادة ويسبر أغوارها ويفهمها ويرفع من قدرتها وطاقتها · وتكون المادة عندئذ جزءا أصيلا من كيان الانسان بينما الروح هي الكيان الاعلى ·

* * *

غير أن الماركسية لم تتفهم هذا الواقع وحاولت تنظيم الامور بشكل ينطبق على سير المادة غير الواعية · ولم تتفهم الماركسية المادة كما هي بل نظرت اليها كذات واتخذت لها أساساً كما يلي :

١ ـ وجود نظام كوني لايدرك سوى ذاته ·
٢ ـ عدم وجود نظام كوني يعتمد حقيقة غير لمادة
٣ ـ انطلاق المادة من المادة ·

وتكون الماركسية عندئذ ذاتا لاتعتمد على مقومات العقل كانطلاق في الوجود يعتمد على الروح كقاعدة للانطلاق الاعلى ، بل أصبحت الذات هي المحور الوحيد للمادة ، الذي ينطلق من بوتقة لاتخضع للانطلاق بشكل واع · وهكذا تكون الذات هي المادة عند الشيوعية· ولا يمكن أن يكون لهذه الذات وجود لانها تعمل بذاتها ، وتنطلق من ذاتها · وتسير في المادة بشكل تواتر بين فعاليات المادة وحسب · ولايمكن للمادة عندئذ ، بمعنى الذات ، أن تتطور أو أن تعلو أو أن تسمو أو أن تعبر عن كيان الوجود بل أصبحت تدور حول ذاتها بشكل فارغ · وهكذا يتم ديالكتيك المادة :

١ ـ الاعتماد على الطبيعة بأنها مادة لاتستجيب الا لامكانياتها ·

٢ ـ عدم الاستجابة لغير القوى الفاعلة في الطبيعة ٠
٣ ـ الاستنتاج الحتمي ان المادة هي الفاعلة والعاملة للسير بنظام الكون نحو الاوج ٠

أما الانتقاد الموجه لهذا هو أن القوى الفاعلة في الطبيعة اذا لم تستجب لغير امكانياتها لا تقدر أن تكون حقيقة بحد ذاتها لان امكانياتها لاتعقل ذاتها ٠ ولايمكن للذات عندئذ ، كمادة الطبيعة التي تسير بنظام الكون نحو التحقيق ، أن تكون سوى صدى لامكانيات الطبيعة غير الواعية٠وتكون الذات لا وعيالامكانيات الحياة٠

* * *

ولكن لماذا اختار كارل ماركس ديالكتيك المادة ؟

لقد انطلق ماركس من نقطة معينة في الفكر وأراد أن ينتهي في نقطة معينة ٠ ولايمكن اشادة البناء الذي رسمه الا من النقطة التي انطلق منها ٠ ولايمكن اقامة البرهان الا بالوسيلة التي تكفل أن تتمشى مع الاسلوب الذي أوجده ٠ وهكذا أوجد ديالكتيك المادة ٠ وبما أن انطلاقه الكلي لايتم الا بواسطة خطة مدبرة تقوم على مقومات العناصر التي تؤلف الموضوع هكذا اعتمد ماركس على الديالكتيك المادي لكي يسير بمنهاجه في طريقه ٠

لقد ألقى ماركس الفوضى في « فلسفة الحياة » ٠ وبراعته تبدو في دراسته للنظريات السابقة وعدم ايجاد طريقة واحدة تؤدي الى وحدة ٠ وهكذا عمل على خلق تناقضات من نظام قائم غير متوحد الاجزاء ٠ ان خلقه للمتناقضات لايبرهن على وجودها ، وحتى ولو برهن على وجودها لكنه لا يصل الى حقيقة منها ٠ وهكذا يكون الديالكتيك الماركسي قائما على مايبدو من متناقضات في عالم يسير

نحو الكمال · لقد حول سير العالم نحو الكمال وحاول اعادته الى انطلاقه الاول ،من الفوضى المادية الى النظام المادي · ولايمكن الانطلاق من الفوضى المادية الى النظـــام المادي الا بايجاد جوهر النظـــام · وجوهر النظام قائم في ترأس المادة ، ولايمكن أن يترأس المادة سوى منظم يدعى العقل · فلا تعود المادة عندئذ مفهوم ذات بـــل تصبح قائمة على تطور حقيقة نظام الكون · وهكذا لا يمكن اعادة الذات الى الفوضى وانطلاقها منها لانهـــا ستبقى سائرة في خط سيرها نحـــو الضلال والفوضى · وهكـــذا يكون مفهوم التطور عنـــد ماركس وديالكتيكه عبارة عن استمرار لاوعي المادة في سيرها وفي دورانها حول ذاتها · وتكون المادية الماركسية عبارة عن تحقيق الذات فقط ويكون الكون لا واعيا ·

لقد خرج ماركس عن مفهوم المادية وأصبح كشخص مثل فرويد· لقد تجاهل القيم المادية التي تعمل لهدف اسمى وتعلق بأهداب الذات لكي يبرهن أن للحياة المادية هدفـــا ، وهدفها لا يخرج عن كونها مادة · وهكـــذا فان نتيجة الفكرة هي المادة · ونفس المثـــال ينطبق على فرويد الذي أعاد جميع ميول الانسان الى مفهوم واحد · ولا يختلف الشخصان في أي شيء طالما أنهما يعيدان قوى الانسان وطاقته الى ميول غير واعية تتكدس في ذات الانسان فتفجره · وهذا ينطبق على كثير من الناس لان الذات واللاوعي يتعلق ويتصل بالقسم الاسفل من الانسان · وهكذا فان تكدس ميول غير واعية في الانسان تخلق فيه ذاتا منفصلة تماما عن كيانه وتحاول أن تفرض وجودهـــا بكل وسيلة مادية ممكنة ، وعلى رأس هذه الوسائل نجد الثورة · والوسائل المادية الموجودة هي انعكاسات غير واعية للميول · ولاتكون المادة سوى سبيل للتعبير عن لاوعي الانسان · والواقع أن ماركس

وفرويد لم يخرجا عن هـــذا الواقع ، وهكذا عوضا عن أن يرفعا الانسان ، خفضوه الى مستوى الانسان قبل التاريخ ·

اذا كانت ميولنا نتيجة لامور غـير واعية فان أعمالنا لا تحقق سوى هذه الميول غير الواعية المتكدسة فينا نتيجة لانفعالات لا نعيها ولا ندركها · وهكذا تنطلق هذه الامور كلها من اللاوعي أي الجهل ·

لا تخرج مادية ماركس عن هذا النطاق ولذا دعوتها بالذات · والذات هي كل مانسميه بميول واندفاع نحو تحقيق هدف مـادي لانعيه · ولكن تحقيق الهدف المادي يجب أن يكون مرتبطا بتحقيق هدف غير مادي وهكذا تتطور المادة نحو وجود أحسن يدعى بالكيان· فالكيان هو جوهر الانسان كفكرة الهية وكذات مادية تعمل للافضل·

لقد تفهم ماركس الذات لكنه جهل الكيان ولم يدرك علاقتها به · وأصبحت جميع انعكاسات المادة دراسة قائمة على متناقضات المادة اذ انها لم تدرك كيان الانسان · وهكذا أوجدت مفاهيمها الخاطئة والخاصة وابدعت قيمها · وهذه المفاهيم ، طالما أن الانسان لا يعقلها تماما ، تصبح ميولا ودوافع وانفعالات غير واعية وتؤدي الى تكوين الذات · وهنا بداية انطلاق الماركسية الفرودوية · لقد درستا ناحية واحدةمن الانسان وحاولتا أن تبنيا حقيقتهما عليها ولكنهما اخطأتا لدى ايجاد هذه الدراسة التي لاتوجد لوحدها · وهكذا نرى أن كـــل ما استنتجناه ينطلق عن الذات · وهذه المظاهر هي انعكاسات الذات فيما يتعلق بالطبيعة والكون والكيان الانساني وعدم تفهمها للحقيقة التامة · وهكذا تتكدس في ذهن المرء ويحاول أن يجد لهـا مخرجا ولكنه لايجد غير الهيجان عند فرويد والثورة عند ماركس ·

* * *

ان صراع الانسان مع نفسه هو نتيجة لعدم تفهم نفسه وخلقه لمفاهيم وقيم تمت بصلة كبرى الى الذات • والمادة لايمكن أن تكون الا جزءا من كيان الانسان مهما كانت حقيقة الانسان سامية أو منحطة • وتصبح المادة تطبيقا عمليا لاعمال الانسان وتفكيره لانه موجود في عالم مادي • وهكذا يميل الانسان للمادة ويحاول أن يحقق أكبر قسط من وجوده المادي • واذا أهمل كيانه وسار بكليته نحو المادة فانه يسير نحو الذات ، أي نحو فرويد وماركس • واذا عمل أن يحقق كيانه بشكل مادي قائم على دراسة مادية وفكرية وروحية فانه يعمل على تحقيق وجوده المادي ضمن كيانه الانساني • وبما أن المادة اشتراك واندماج الروح بالمادة (لان العمل المادي فكر ومادة) لذلك فاما أن يشترك المفهومان ويعملان لتحقيق قيمة الانسان أو أن تثور المادة (كما فعل آدم) وتنطلق في انعكاساتها وانفعالاتها فتؤدي للثورة والهيجان أي الى تحقيق الذات • ولاتكون الماركسية والفرودوية سوى ثورة اللاوعي •

حقيقة المادة اذن هي انها جزء لا يتجزأ من كيان الانسان وهكذا لايمكن أن تكون ذاتا • وأما ديالكتيكها فلا يكون ديالكتيك ماركس الذاتي المادي اللاواعي بل يكون تحقيقا لعمل المادة ضمن كيانها أي لتحقيق الجزء المنوط بها من كيان الانسان • ويكون ديالكتيكها كمايلي:

١ ـ المادة جزء من الكيان الانساني •

٢ ـ الكيان الانساني يحقق هدفاً في الحياة •

٣ ـ المادة بما أنها جزء من الكيان الانساني ، تحقق ما يتعلق بها من واجب •

٤ ـ اذا خرجت المادة عن نطاق كيانها تصبح ذاتا •

ان ديالكتيك المادة هو تحقيق وجودها ضمن كيانها ، وهكذا يجب أن تصل الى هدف • هناك هدف للمادة طالما انهـــا جزء من الكيان ، فهي اذن مرحلة من مراحل تحقيق الكيان • وتتمثل هذه المادة بالعقل • والعقل له مملكته الخاصة ويتربع على عرشها • (اذا اختل هذا العرش يكون بسبب الذات التي تتبنى الانفعال والدوافع والهيجان ويكون الجنون ، ويصبح العقـل تابعاً وفوضوياً) • ان عرش العقل هو المادة • فالعقل اذن جزء من الكيان • ولايمكن أن يكون العقل لا هادفا لانه يعمل في أصول المادة ليتفهمها • ومتى عمل العقل لكي يتفهم المادة فمن المؤكد أن يكون له هدف • فالعقل اذن هادف • ومتى هدف العقل لشيء فانه يحقق ماهو منوط به لتحقيق ذلك الشيء • هذا التحقيق هو برهان على أن العقل جزء من الكيان• وبما انه لايستطيع أن يتوصل ا لىتحقيق الكل لذلك يجب أن تكون هناك درجات أعلى منه وهذه الدرجات تتسم بطابع أكثر للمعرفة • وهكذا يكون هدف المادة هو معرفة مايحيط بها بواسطة العقل المنظم لتحقيق امكانيات الانسان كلها ككيان ، وتدريب العقل على تحقيق ما أنيط به بشكل مادي يعمل على تحقيق القسم الاول من الكيان •

فالوجود المادي ، وعلى رأســـه العقل ، لايمكن أن يكون ذاتا بانفعالاتها اللاواعية بل هـو وجود قائم لتحقيق درجة كبـيرة من المعرفة • ولاتصبح المادة ذاتها تنهش ذاتها وتسير في دائرتها المغلقة بل تصبح انطلاقا نحـو الاحسن ويكون سير الحيـاة نحو تحقيق الحياة • ان عملية الحياة لا تتوقف على الوجود المادي كمرحلة بل على انطلاق اوسع في مجال الكيان • ومهما رأينا من اختراعات فليس هذا سوى مظهر من مظاهر تطور المادة وتحقيق جزء من الكيان • وتوصل المادة الى درجات من المعرفة وتحقيق ما أنيط بها من واجب ليس الا انطلاق الكيان في مرحلته الثانية أي النفس • والعقل هنا منظم وحكيم ومدرك • وهكذا نعلم مقدرة العقل وطاقته • والمادة هنا لا تكون لا واعية بل واعية لواجبها ، واذا جهلت واجبها أصبحت انفعالا أي ذاتا •

ان تحقيق الكيان الانساني يتم بتحقيق مراحله · وأولى مراحله هي العقل أي المادة · ولـم تنته البشرية من مرحلة العقل اذ أننـا لانزال في اطاره ودائرته · والحياة تسير نحو تحقيق العقل أي المادة وعندما يتم فهم المادة تسير الى تحقيق المرحلة الثانية وهي النفس · وهكذا تكون المادة فهما ووعيا لحقيقة كبرى · ولا تكون لا وعيا أو ذاتا انفعالية ، بل انهـا تطور نحو الاحسن وأي خروج عن الفهـم يؤدي الى الذات ·· الى فرويد وماركس ·

هكذا نرى أن ماركس اخطأ وعبثا حاول أن يستنتج شيئا من الحياة · فاذا كانت البشرية تسير نحو الاختراعات ونحو تحقيق المادة ، ذلك لان المادة هي مرحلة نحو انطلاق اوسع ، ولانها تخضع لمفهوم أعلى · ولو كانت موجودة بذاتها لبقي الانسان بحيوانيته ولما كان بحاجة ان يخضع المادة لاعماله · بل لكانت الحيـاة اشباعا لميوله غير الواعية وتكديس تلك الميول · وماذا يهمه لو سار للافضل أو للأسوأ طالما انه عبد لذاته ·

ان تقدم الانسان دليل على ادراكه ان هناك حياة أفضل ووسائل أفضل · ان أعمال المادة ، وهي مرتبطة ببعضها لكي تؤلف وحدة ، يجب أن تؤدي الى الكمال يوما بعد يوم · يستحيل أن يقوم عالم بعمله ليتفهم حقيقة الذرة والاشعاع وكل مايتعلق بالكون لو لم يكن هناك محرك في أعماقه يدفعه أن يعرف ·· سر المعرفة ·· وأن يتخطى حدود المادة الى ماهو أوسع انطلاقا وفهما · اذن في المادة تكمن أول درجة من درجات الفهم ، وهي انطلاق نحو الاحسن أي تخطي حلقتها وانطلاقها نحو الكيان الكلي ·

أين تقع الشيوعية من هذا ؟ أليست هي والفرودوية هدفا لانتحار الانسان في حلقة غرائزه ·· هذه الغرائز أي اللاوعي الذي خلقوه ؟

-٦-

نقد مفهوم الحرية

تفاجئنا الشيوعية بمفهوم الحرية وتبدو كأنها تحاول أن تحلل موقف الانسان من مجتمعه ومن نفسه · وهكذا تبدو مشكلة الحرية انها حل لمشكلة الانسان · وكيف يمكن أن تكون الحرية كما هي بالنسبة للشيوعية ؟ هذا هو ديالكتيك الحرية في الشيوعية :

١ ـ بعض الناس أو أكثرهم يعيشيون بشكل عبودية ·
٢ ـ يعيش هؤلاء « البعض أو أكثرهم » تحت رحمة الاقلية ·
٣ ـ يجب أن ينعتق هؤلاء « البعض أو أكثرهم » ·

وهنا تكمن مشكلة الحرية ويتوصل ماركس الى ما يلي :

١ ـ حرية هؤلاء « البعض أو أكثرهم » تتوقف على حصولهم على الحرية من غيرهم أي الاقلية ·

٢ ـ حصولهم على الحرية يجب أن يكون بتحطيم الاقلية ·
٣ ـ وهكذا تتحرر الطبقات الفقيرة ·

* * *

هذه هي مشكلة الحرية عند الماركسية · وهل حلت الماركسية مشكلة الحرية او انها زادتها تعقيدا ؟ اذا كانت الحرية مقياس تحرير البعض من البعض الآخر بعد تقتيلهم والقضاء عليهم ، فان حرية ماركس هي الحرية البدائية ، هذه الحرية القائمة على سفك الدماء وتحطيم المجتمع واشعال الحروب واقامة البغضاء بين الناس · واذا كانت الحرية هي في الواقع حلا لمشكلة قد استعصت على الانسان فلا تبدو الماركسية انها تحلها بل تزيدها تعقيدا ·

اذا عدنا الى مفهوم الحرية في التاريخ نجد أنه لاتوجد حرية · لقد تقلبت الحرية في أحضان التاريخ ، وبما أن التاريخ ليس الا حلقة من أعمال الانسان غير الواعية فالحرية لم تكن سوى عملية تناحر وصهر مفاهيم الانسان المتناقضة في قالب معين · وهذا ماعرفه ماركس وحاول القضاء عليه · وهذا مايجعلنا أن نقول أن ماركس حاول أن يجد آفاقه في المتناقضات · وحاول أن يخلق مفهوما للحرية من بطون التاريخ وأعمال البشر المتناقضة · وهنا يخطىء لانه حاول أن يصل الى نتيجة حاسمة من جراء اعتناقه للتناقضات ، وحاول أن يقيم حريته على أسلوبه الوحيد الذي يقوم على الثورة · لقد رأى أن جميع التناقضات لم تنفع البشرية ولذلك يجب أن يجد لها حلا · ولم يعد ولو مرة واحدة الى حقيقة الانسان بل حاول دوما أن يعتمد على مايجده أمامه من تناقضات ومظاهر فيستنتج منها مايريد · وهكذا حاول اقامة توازن بين سلطتين أو قوتين · والتوازن الوحيد هو قيام قوة على أخرى لكي تتحرر من قيودها · لقد فرض وجود اختلاف بين القوتين وأراد أن يزيل الاختلاف بمفاهيمه الخاصة أي بواسطة التناقض ·

ان تناقض القوتين يجب أن يؤدي الى خلق نوع جديد من المفاهيم · وهذا النوع الجديد هو تحرر طبقة أو « البعض أو أكثرهم » من نير العبودية التي تفرضها الاقلية · وهكذا لا يخرج ماركس عن مبدأ التناقض الذي سار عليه منذ البداية · وعملية تحرير فئة من أخرى تعد عملية الحرية ·

لكن هذه العملية ليست الا عملية صراع · ويعود الصراع أول الامر الى صراع الانسان مع نفسه وصراعه مع المجتمع وصراع المجتمع ضد نفسه · وهكذا يحاول الانسان أن يتحرر وأن ينعتق من عبودية

نفسه ومن عبودية المفاهيم الاخرى وأخيرا تحاول الفئات أن تنعتق من سيطرة المفاهيم الاخرى . وهذا مايعيدنا الى بحث مفهوم الطبقات والقول ان الطبقة ليست الا مفهوما . وهكذا لايتحرر الانسان الا من مفاهيمه . وهكذا فان حريته لا تكون بالقضاء على البشروالثورة ضدهم بل تعتمد على تفهم الانسان لنفسه وتحرره من كل عبودية صادرة عن مفاهيمه وعن ذاته .

لم يعد ماركس الى أصل نشوء مفهوم الحرية عند الانسان . لماذا يريد أن يتحرر الانسان ؟ ألكي يأكل ؟ اليعيش في بيت مريح ؟ يوجد شيء أهم من هذا كله . ومن قال بأن الانسان ليس حرا ؟ ومن يستطيع أن يسيطر عـــلى حرية فكري ؟ من يقدر أن يقيد تفكيري ويضعه في قفص ؟

ان حرية الانسان توجد في قيمـة وجوده وفكره ، وقيمته هي عمله وانعتاقه من كل قيد وتضييق على انطلاقه . تتحقق هـــذه الفكرة كما يلي :

١ ـ وجود الانسان يتطلب حريته لكي يدرك كيانه .
٢ ـ قيمة وجود الانسان هي مقدار انطلاقه في فكره القائـم على حقيقته والقضاء على الذات .
٣ ـ الانطلاق هو الانتصار على الذات .
٤ ـ الحرية اذن هي الفهم والادراك .

وهكذا نرى أن حرية الانسان هي مقدار مايصل اليه في توطيد سلطته الروحية والفكرية . وكـــل تضييق عليه يرميه في أحضان الذات . فالذات هي العقبة الوحيدة التي تقف أمام الانسان وتمنعه من الوصول .

كيف فهم ماركس هـذه القضية ؟ لقد رأى أن الحرية مقياس تحرر ولم يجد أمامه سوى التناقضات الصادرة عن الذات أي انه لم يجد سوى عالم الذات : امكاناتها ، أساليبها ، مفاهيمها وتطبيقها · ولم يجد في تطبيق الذات مايسهل للانسان طريق الافلات من عبودية الحياة بشكل عام · ووجد في نفس الوقت أن الحرية يجب أن تكون انفلاتا من أعمال الذات · وهكذا اخطأ ماركس في مايلي :

١ ـ لم يتفهم حقيقة الذات ولم يدركها ·

٢ ـ لم يدرك أن الحرية التي ينشدها لاتعتمد على الذات لان أعمال الذات قائمة على جوهر التناقض ·

٣ ـ لقد استنتج كل مفهوم للحرية من أعمال الذات ·

٤ ـ الوسيلة التي اعتمد عليها لاستخلاص الحرية من الذات هي نفس الوسيلة التي اعتمد عليها في ديالكتيك المادة ·

٥ ـ ان اعتماد ماركس على ديالكتيك الذات أدى الى تطبيق التناقض القائم بين خصائص الذات ·

٦ ـ التناقض بين خصائص الذات لايكون الا بصراع المفاهيم التي اعتمدت عليها الذات ·

٧ ـ تكون الحرية عندئذ قائمة على الثورة التي كما مرت معنا هي ثورة الانسان ضد نفسه ، ضد المجتمع ، والمجتمع ضد المجتمع ·

* * *

رأينا أن حرية ماركس هي امتداد للذات · لقد مرت الذات في كل أطوار التاريخ ولم تحمل في طياتها سوى التناقض والفوضى ، فكانت الحروب · لقد حملت كل بذور الخصام والصراع · وحملت أيضا وسيلة الوصول والقضاء على الفوضى بالفوضى · وتراكمت مشاكل الذات وكثرت وأصبح الحل أكثر صعوبـة · فماذا يمكن أن تكون النتيجة ؟

الحرية هي الوسيلة الوحيدة لانعتاق بعض خصائص الذات من خصائصها الاخرى • لكن هذه الخصائص تناقض بعضها ، بالرغم انهـــا امتداد للذات بشـــكل ما • وهكـذا فان تناقض هـــذه الخصائص لايقضي على الذات بل يزيد في امتدادها • وهكذا ، اذا قامت احدى خصائصها لكي تعلن انها الحقيقة فلا يكون ذلك الا أن احدى خصائصها قد أخذت تقوى على حساب الاخرى وأخذت تعمل لكي تسيطر على الخصائص الاخرى • وهذا لايدل أن المسألة قد حلت أو أنه يمكننا أن نصل الى الحقيقة • ولننظر كيف يتم الامر :

لقد رأينا أن جميع المفاهيم والقيم هي من خلق الذات وخصائصها ، وهي ليست متساوية • والتنافر قائم بين جميع أوجه النشاط القائمة في كل واحدة منها • ولقد برهن التاريخ أن هذه الخصائص ـ من ملكية وغيرها ـ تتصارع ولا تصل الى نتيجة • وعندما أتى ماركس حاول أن يجد حلا يكون نتيجة حاسمة للموضوع ، فماذا فعل ؟ لقد وجد أن كل الخصائص تناقض بعضها ، وبعضها يطول بينما بعضها يقصر ، وبعضها يتمتع بميزات لاتتمتع بهـا الاخرى • وهكذا يجب تحقيق المساواة بين هذه الخصائص واظهار المفهوم الحاسم فيها • ولم يعمل ماركس شيئا الا أنـه عكس وجه التاريـخ أي الذات من خصائص الى خصائص أخرى ضمن الذا ت• وهكذا كانت ثورة ذاتية كبرى أدت لى تقوية الذات واعادة مركزها بشكل أقوى •

لم يعد ماركس الى حقيقة الانســان لكي يعلم أن الحريـة هي انطلاقه من بوتقة المادة التي اذا استمرت في مادتها تصبح ذاتا • ولم يدرك أن الحرية هي فكر الانسان وليس ما يأكله أو يشربه • ولم يقض ماركس على الذات بل عمل على امتدادها في سيرها •

ولهذا لا تكون الحرية انسانية في الشيوعية لان الانسان وان تحرر ماديا من تقاليد المجتمع ومن نظامه يبقى يواجه ذاته وتفكيره•• فمتى يصبح حرا ؟ ومتى يعرف الحقيقة لكي يتحرر ؟

- ٧ -

نقد مفهوم المساواة

اذا كان الناس متساوين فلماذا يبحثون في المساواة ؟ توجد وسيلتان لفهم المساواة : امـــا أن الناس متساوون أصلا وجوهرا وأصبحوا غير متساوين ولهذا يختلفون ،واما انهم لم يكونوا متساوين أصلا وجوهرا ويحاولون أن يتساووا ٠

يفترض هذا الامر تناقضا في مفهوم الانسان ٠ فاذا اعتمد البعض على القول الاول فانهم لا يقدرون أن يجدوا حلا جذريا لقضية المساواة لان أصل الانسان يعتمد على جوهر واحد ، واذا لم يتفهموا هـــذا الجوهر فانهم لا يتفهمون قيمة المساواة ٠ واذا قـال البعض الآخر أن المساواة مشكلة اجتماعية تعتمد على مقدار مايفرضه المجتمع من تكاتف وتعاون فانهم يصلون الى حلول نسبية تعتمد على مفاهيـم مختلفة ولا تؤدي الى تقييم المساواة كجوهر ٠

وهكذا تتقاذف الامواج الانسان ٠ فاما ان يعود الى الشاطىء ليرى ماذا يوجد هنالك أو أنه يستمر في ابحاره ليجد مايقع هناك ٠ وتكون المسألة شائكة للانسان لانه ان عاد للشاطىء واندفـع في اليابسة يبحث عن حقيقته لا يجد سوى اثار ماضيه ولا يحاول أن يجد أين هو ولماذا هو هناك ٠ واذا اندفع في البحر فلا يجد ســوى المحيطات ولا يعرف أي طريق يسلك ٠ ولكي يستقر على أمر ولكي لايجد نفسه لا منتميا فانه يحاول أن يشق طريقه عبر البحار ليعرف ماذا يوجد ٠ وفي نفس الوقت لايكون قادرا أن يحيط علما بما يحيط به من فراغ ولا بما يقع تحته من عمق ، ولذلـك تراه دوما يغالب

الامواج فينشغل بها عن حقيقته ،واذا استطاع أن ينتصر على موجة فلكي يواجه موجة أخرى ، واذا بقي حيا فان عمله هذا لايكون الا عملية مستمرة من الصراع مـــع البحر وأمواجه والتفكير الدائم في كيفية التغلب على أمور تحيط به ٠

هذه هي مشكلة الانســان : وجوده في المجتمع ضمن المفاهيـم والقيم التي أبدعها ، يعالج هذه ويحاول أن يطبق تلك ٠ وفي كل الاحوال يعمل بدافع قوة تسير به نحو معالجة ما بدأ به وخلقه ٠ وهكذا يحاول أن يدرك كنه مايحيط به وليس عمق ما أوجده ٠ ان ابتعاده عن اليابسة كان سبب حيرته بالانفعالات التي تسيطر عليه ، يتغلب عليها وتتغلب عليه ، يصارعها وتصارعه ، يعمل بها حينا ويهجرها حينا آخر ، يحاول أن يجد لها بديلا ولكنه يبقى عليهـا ويعمل بها بشكل مختلف ،وهكذا تبقى قضية الحضارة مشكلة تبدل القيم والمفاهيم ذاتها التي خلقها الانسان ٠ ومشكلة التبدل هذه توجد أنواعا مختلفة من الوسائل لعبور محيط فوضى الانسان وذاته ، هذه الانواع المختلفة من الوسائل توجد انصـاف حلول ولكنها لاتوجد الحل الوحيد والنهاية الحقة لعالم الانسان ٠

ولكي لا نعود الى المفاهيم المتعددة التي وجدت بوجود المساواة علينا أن ننظر للمساواة من وجهة ديالكتيك ماركس :

١ ــ لا مساواة بين الناس ٠
٢ ــ يجب ايجاد مساواة بينهم ٠

كيفية ايجاد المساواة :

١ ــ يجب أن يتساوى الناس في قيمهم ومفاهيمهم ٠
٢ ــ يجب أن تكون جميع القيم والمفاهيم مشتركة وعامة ٠

كيف تتم هذه المساواة ؟

١ ـ باعادة ما أخذه شخص لشخص آخر ٠

٢ ـ بتوزيع امكانيات وخصائص المجتمع بين الجميع أو الانتفاع منها بأحسن وسيلة ممكنة اجتماعيا ٠

وهكذا يكون ديالكتيك ماركس كما يلي :

١ ـ توجد قيمة مشتركة بين البشر ٠

٢ ـ وجود هذه القيمة المشتركة دليل مساواتهم ٠

٣ ـ اذا طبقت هذه القيمة المشتركة بين الجميع ، فان المساواة تتم ٠

وطالما أن القيمة مشتركة بين البشر ، فلماذا لم تعد مشتركة :

١ ـ لم تعد تلك القيمة مشتركة بين الناس لان البعض قد تسلطوا على البعض الآخر واغتصبوا حقهم ٠

٢ ـ لم تعد توجد مساواة بينهم لان القيمة المشتركة لم تعد مشتركة بل أصبحت من نصيب البعض ٠

٣ ـ اعادة القيمة المشتركة وتحقيقها مرة أخرى بنفس الاسلوب الذي اغتصبت ٠

بقي هذا الكلام نظريا وكيف يمكن تطبيقه عمليا ؟

١ ـ طالما أن القيمة المشتركة لم تعد مشتركة وأصبحت من حصة البعض ومن خصائصهم لذلك يجب تجريدهم منها واعادتها للاخرين الذين حرموا منها ٠

٢ ـ طالما أن هؤلاء المغتصبين لا يتنازلون عن قيمهم بسهولة لذلك يجب أن يعيدوها بالقوة ٠

٣ ـ اعادة القيمة المشتركة بالقوة هي السبيل الوحيد لتحقيق المساواة لانها الديالكتيك الوحيد الذي أدت اليه جميع الفرضيات السابقة ٠

وهكذا يبرهن ماركس على صحة ديالكتيكه للمساواة من جراء الفرضيات التي وضعها مسبقا لكي تعمل كدليل له ٠ ولكن لدى مهاجمة ديالكتيك ماركس علينا ان نرى اذا كان قد انطلق به من جوهر أو انه أوجده من تناقضات كما هو الحال في استنتاجاته ٠

* * *

لقد أوجد ديالكتيك ماركس حالة راهنة لا تقبل الجدل ٠ لكن هذه الحالة لم تكن حقيقة ايجابية صادرة عن كيان الانسان بل انها انطلقت عبر عنصر الوقت لكي تكون نواة تكرر الذات لاعمالها ٠ ونعود دوما الى سؤالنا الاول : هل أن الناس كانوا متساوين أصلا وأصبحوا غير متساوين أم أنهم كانوا غير متساوين ويحاولون أن يتساووا ؟ ان طريقة ماركس تأخذ الثانية وتحاول أن تحل المشكلة ٠ ولننظر كيف تتم وماهي عيوبها ٠

لقد نظر ماركس الى الحياة الواقعية بمنظار التحليل ورأى الفساد والطغيان ٠ لقد رأى الجرثومة ولم يعرف كنهها لكنه درسها لكي يعين ماهية المرض ٠ لقد علم أن الناس غير متساوين وحاول أن يخلق المساواة بين الجميع ٠ ورأى الاسباب الرئيسية لعدم مساواة لناس ، فوجد أن الملكية سبب رئيسي ، وهكذا حاول أن يزيل أسباب اللامساواة بقهر مفهوم اللامساواة في الظاهر ٠ لقد أراد أن يزيل الملكية فيساوي الناس ببعضهم على أساس ازالة الملكية ٠ واذا كانت ازالتها لا تتم بالفهم فيجب أن تتم بالقوة ٠

النقد الموجه لهذا هو أن ماركس لم ينظر الى السبب الرئيسي المتجسد في مفهوم الملكية • لقد رأى الملكية كملكية ولم يعرف الواقع للمشكلة • وهكذا لم يحاول أن يزيل السبب الرئيسي لها بل أراد أن يقضي عليها كعامل اجتماعي • ان القضاء على الملكية بوسيلة ماركس لا يقضي على مفهومها لانها مفوم وليست عنصرا انسانيا الا بنسبة ما تقاس بالمفاهيم المرتبطة بها • ومحو الملكية بوسيلته يبقي ملكية أخرى لها مفهوم الملكية ولكن الوسيلة قد اختلفت • وهكذا لايخرج ماركس عن دائرة تطبيق الذات وخصائصها •

تقوم مساواة ماركس على اعادة توزيع المساواة بين الناس • ان هذه المساواة التي يريد توزيعها هي مفاهيم مختلفة يسعى وراءها الناس لانها تعبر عن ذاتهم التي وضعوها في حلقات تسمى بملكية ومساواة وحرية الخ • فاذا استطاع ماركس أن يوزع هذه المفاهيم بين الناس فيكون قد أوجد المساواة لانه يعتقد ان المساواة هي نتيجة تساوي الناس في المفاهيم •

أين يقع الخطأ هنا ؟ رأينا كيف أن الناس يسعون لتطبيق مفاهيمهم بشكل مادي أو ذاتي يظهر بأشكال مختلفة لكي تعبر عن ذاتهم • لقد اشترك الجميع بنفس المفهوم • والملكية والمساواة والحرية موجودة عند الجميع بالتساوي لكن البعض استطاعوا أن يطبقوها عمليا وان يوجدوا لها تجسيدا كمادة أو كعمل بينما لم يستطع الآخرون • وعدم استطاعتهم تعود لاسباب عديدة منها الضعف أو قلة الطمع أو قلة خبرتهم الخ • وهكذا تكون المساواة كمفهوم قائم في عقول الجميع بالتساوي وتكون غير قائمة وغير محققة التطبيق • وماذا يريد ماركس الآن ؟ انه يريد تطبيق هذه المفاهيم •

وأين يقع الخطأ الثاني ؟ لقد رأينا كيف ان خلق المفاهيم لم يكن الا نتيجة جهل الانسان لحقيقته · وقد أدت هذه المفاهيم الى صراع عنيف بين قايين وهابيل كمثل حي يعبر عن واقع الانسان المادي · لقد كان قايين وهابيل أخوين يعملان في عملين مختلفين وكانا متساويين في المفهومين · أما خلقهما لعملهما أدى الى اختلاف في كيفية تطبيق العمل : وبالتالي فقد اختلف مفهومهما لدى تطبيقهما · ان الاختلاف في تطبيق المفهوم يؤدي الى اثارة المشاكل · ولذلك نقول أن المساواة كانت توجد بالتساوي بين الناس ولكنهم لم يقدروا أن يطبقوها بالتساوي · وبما انها كانت نتيجة خلق سيء من قبل الانسان ، خلق أدى الى مفاهيم وقيم لايمكن أن ترتاح أو تهدأ لذلك يخطىء ماركس في انه يريد مساواة جميع البشر في مفاهيم خاطئة لا تقوم على حقيقة ·

وبما أن الناس لا يقدرون أن يطبقو المفاهيم بالتساوي لذلك يعمد ماركس الى خلق وسيلة جديدة وفعالة لكي يقضي على عدم المساواة : وهذه الوسيلة هي القوة · ان مساواة ماركس تقوم على التطبيق القسري للمفاهيم اللاواعية التي خلقها الانسان بأنانيته وشره · وهذه الوسيلة لتحقيق المساواة خاطئة لانها لاترتكز الا على وجود التناقضات ضمن نظامه · ان تطبيق مفاهيم مشتركة بين الناس ومساواتهم جميعا لا يؤدي الى تطبيقها الا بالعنف ، لانه كما قلنا ، أن جميع الناس يتساوون في خلق المفاهيم لكنهم يختلفون في تطبيقها · وطريقة التطبيق الوحيدة هي النزوع نحو عملية استرجاع تلك المفاهيم بالقوة · والاختلاف القائم ليس على ملكية المفاهيم عقليا بل على تطبيقها ماديا · وهذه هي نقطة ضعف الديالكتيك لانه لايزيل السبب من الاساس ·· من العقل ·

اذا أراد ماركس أن يطبق المفاهيم ماديا فلأنه يعتمد على ديالكتيكه الذي استمده من التناقضات القائمة في المفاهيم . هذا التناقض موجود بشكلين :

١ ـ ملكية المفاهيم عقليا وهي عملية يشترك فيها الجميع .

٢ ـ عدم ملكية المفاهيم ماديا وهي عملية لا يشترك فيها الجميع . هذا التناقض البارز في المفاهيم يجب أن يؤدي ، كما يفترض ماركس ، الى تطبيق المفاهيم ماديا بين الجميع . ولكن ديالكتيكه لايقدر أن يجد طريقة سلمية وفعالة الا اذا علم أن اختلاف المفاهيم ذاتها غير واقعي طالما ان البعض يملكونها بينما يحرم منها الاخرون . وهكذا يعود الى منشأ هذه المفاهيم ووجد انها ناشئة بحد ذاتها بهذا الشكل وهكذا يجب تغيير خطة سيرها . ولايحقق التغيير الا بالاشتراك العام بواسطة ديالكتيك ماركس . ولا يكون هذا الاشتراك الا تعبيرا عن الذات . وهكذا نقول أن ماركس قد عاد للبرهان على صراع الانسان ضد نفسه وعلى خلق المفاهيم نتيجة لا هدفيته في الكون .

ان تحليل ماركس للمساواة هو امتداد للذات لانها تعمل على تحقيق مفاهيمها ، بالطريقة التي تتكيف بها . وهذه الطريقة هي ثورة المفاهيم على بعضها لكي تحقق تساويا بين بعضها .

* * *

وماذا يبرهن ماركس عندما يتساوى جميع الناس في تطبيق مفاهيمهم بطرق مادية ؟ أيكون قد خرج عن دائرة الانسان المفرغة التي بقيت هي ذاتها لكنها اختلفت بالدرجة ؟ وهكذا يبقى المفهوم ،وطالما انه انطلاق للذات ، يبقى اللاوعي متمركزا بالشكل الجديد للمساواة .

ولا يؤدي هذا الى أي شيء الا لخلق حضارة جديدة ، أي حلقة تاريخية جديدة • وتكون هذه الحضارة أشد خطرا من غيرها لانها أيقظت التناقض الذي كان منطويا في المفاهيم ، وجعلها ان تنظر لبعضها بأنها غير متساوية •ان مساواتها عقليا وعدم مساواتها ماديا قد انطلق الآن الى لا نهاية الصراع اللاواعي القائم في الذات • وهكذا تكون المساواة عند ماركس هي اثارة الذات ضد أعمالها واقامة حضارة جديدة تعتمد كليا على ثورة الذات • وهكذا تكون المساواة في الشيوعية نتيجة للعنف والقسوة ولذلك نرى أن الديكتاتورية هي المفهوم الوحيد بعد الثورة • وهذا لان ثورة اللاوعي والاعتقاد بمساواة جديدة لا يدل على خلق تلك المساواة بل على تغيير مفهوم المساواة نسبيا للحضارة المحتضرة والثائرة • وهكذا تحاول الديكتاتورية وضع اللجام بفم المفاهيم لكي تعود الى سالف عهدها • وتبقى الديكتاتورية ماسكة باللجام وبالنار والحديد لكي لا تفلت المفاهيم من يدها وتعود للصراع من جديد •

هذه المساواة قائمة على اعادة تجديد الصراع بين المفاهيم • ويدعو هذا التجديد الى كم أفواه المفاهيم الاخرى ولجمها لكي لاتؤثر على المفهوم الجديد لحضارة المساواة الماركسية ولكي لا تخرج عن دائرة ثورة الذات ضد كل العناصر التي خلقتها •

وهل تكون المساواة قد تمت عندئذ ؟

اذا استطاعت الشيوعية أن توجد المساواة في تطبيقها المادي للمفاهيم فلا تستطيع أن توجد المساواة في المفاهيم ذاتها أو تبديلها لانها تحمل تناقضها في ذاتها منذ البدء • وهكذا تبقى مسألة المساواة عالقة وأشر خطرا • لا تتبدل المساواة وهكذا تبقى مفاهيمها قائمة

بالنسبة للتساوي العقلي بين الناس ، لكنها تكون مغلقة الفم لكي لاتظهر للعيان وتوقظ الانفعالات الغافلة من جديد • ولايمكن الا أن يظهر هذا التساوي عقليا على مر الزمن • فتعود المفاهيم وتتكون مرة أخرى بدرجات نسبية مختلفة طبقا لمفهوم الحضارة الجديدة • وتظهر الاختلافات بالنسبة للامساواة الماديـــة طبقا لظهور عدم المساواة العقلية•وتعود المفاهيم تعمل من جديد ويعود المجتمع الى ماكان عليه•

لماذا فشلت الشيوعية في تحقيق مفهوم المساواة ؟

لقد فشلت الشيوعية لانها لم تعد الى جوهر الانسان •

نعود الآن الى ماذكرناه في مفهوم المساواة وهو أن المساواة الحقة يجب أن تكون منذ البداية • ومهما اعتقدنا في أصل الانسان نستطيع أن نفكر به فقط كانسان •وجد هذا الانسان بعقل وروح ونفس • لقد وجد جميع الناس هكذا • وهكذا فقد وجدوا متساوين • فاما أن يكون الناس متساوين نتيجة خلقهم وتكون المساواة جوهرا أصيلا في الانسان وهي من كيانه ، واما أن يكون الناس مختلفين أصلا في عدم مساواتهم عند الولادة وهكذا لا يمكن حل مشكلة الانسان ••• وعندئذ تبرهن الشيوعية على فشلها كحضارة الذات الثائرة •

ولكن لابد أن الناس قد وجدوا بامكانات متساوية أو على الاقل بتشابه ضمني أو ظاهري حقيقي ولكن اختلافهم أخيرا كان نتيجـة عدم تفهم الحقيقة لان كيانهم قد انقسم على نفسه ككيان متمسك بجوهر وكذات ثائرة تعمل لخلق جديد •

لقد فشلت الذات أيضا ولن تخلق سوى المفاهيم الماديـة •• وكانت اللامساواة من نصيب هذا الخلق • ووجد الناس ، بعد هذا الخلق، مختلفين يعملون على تلافي الخطأ • وحاولوا دوما اصـــلاح الخطأ من خلال الخطأ والتناقض لا من خلال الحقيقة •

وهكذا كانت الشيوعية معبرة عن الذات لانها حاولت اعـــادة المساواة بين الناس على أساس المساواة في الذات · وبما أن الذات ليست واحدة وليس لها جوهر واحد بل لها خصائص متعددة لذلك بقي الحل قائما في التناقضات وبقيت الشيوعية مشكلة التناقضات في نظام الذات ·

مايمكن أن تكون المساواة ؟

ان اللامساواة هي الانشقاق في كيان الانسان واقامـة الـذات وخلقها لمفاهيمها وانقسامها جذريا في كل شيء لان كل ذات حاولت أن تجد الاصلاح من خلال ذاتها · وبقيت حياة الانسان سائرة في اتجاه الذات وتقويتها حتى أتت الشيوعية فثارت الذات وأوجدت حضارة جديدة قائمة على المساواة في أعمالها ·

كيف يمكنني أن أكون مساويا لغيري ؟ الانسان متساو مع جميع الناس·· بكيانه الذي ينبع من أصل واحد · والمساواة لا تقوم على اقتسام رغيف الخبز بل على معرفة الحق ·

* * *

- ٨ -

نقد مفهوم الديكتاتورية

في كل نظام اجتماعي سلطة · اذن في كل نظام شيء من الديكتاتورية · وبما أن السلطة هي المفهوم الرئيسي لكل نظام اجتماعي لذلك يجب ن نتفهم حقيقتها · ولكي ندرك حقيقة السلطة يجب أن نعود الى جوهر لمعرفة رغبة الانسان بها ·

ماهي السلطة ؟ هي مفهوم ذاتي اجتماعي · اذن هي من الذات ·

وكيف تكون السلطة من عمل الذات ؟ لقد رأينا أن حياةالانسان المادية هي حياة المفاهيم التي خلقها أي التي انطلقت عن ذاته · لقد أوجد المفاهيم عندما جهل حقيقته ولم يدركها وهكذا مر بالمراحل التالية :

١ ـ وجود الانسان على الارض ·
٢ ـ محاولة فهمه لحقيقته وفشله ·
٣ ـ خلقه للقيم والمفاهيم التي تناسب وجوده المادي ·
٤ ـ انطلاق المفاهيم من الذات هو نتيجة الصراع ·

التفت الانسان عندئذ ليفتش عن الطريقة التي يتفهم بها وجوده · فوجد طريقه المباشرة في المادة ، فشكل صوره المنعكسة عنها ، وكون مفاهيمه التي أصبحت دليله الوحيد ·

في البدء خلق الانسان المفاهيم لدى فشله في فهم نفسه·وماحدث بعد ذلك نتيجة حتمية لهذا الخلق · وهكذا يصل الانسان الى حتميته الثانية :

١ ـ خلق المفاهيم والقيم هو نتيجة متممة لجهل الانسان ٠
٢ ـ محاولة الانسان لتطبيق المفاهيم ٠
٣ ـ وجود مفاهيم مختلفة صادرة عن أناس مختلفين ٠
٤ ـ تبدل الجوهر واتباع مفاهيم مختلفة ٠
٥ ـ صراع هذه المفاهيم ٠

وهكذا يدخل الانسان المجتمع ٠ لقد قاده خلق المفاهيم الى صراعه مع المفاهيم الاخرى الصادرة عن أناس آخرين ٠ وهكذا تصطدم هذه المفاهيم لانها لا ترتكز على جوهر واحد ولانها صادرة عن الذات التي هي مظهر المادة وحركتها الانفعالية ٠

ولقد حصل بعد ذلك :

١ ـ ان صراع المفاهيم يؤدي الى تقارب بعضها ٠
٢ ـ تقارب المفاهيم (رغم اختلافها) يؤدي الى تشكيل جماعات أو ائتلافات أو كتل أو احزاب تعمل على اظهار مقدرتها كذات ٠
٣ ـ صراع الكتل أو الائتلافات وتشكيل جبهات مختلفة الرأي تعمل على اظهار واقعها ٠
٤ ـ يؤدي هذا الصراع الى وجود السلطة التي تعبر عن ذات المجموعة القائمة بين المجموعات الاخرى ٠
٥ ـ قيام ائتلاف أو كتلة تفرض سيطرتها ٠
٦ ـ تحقيق الدكتاتورية عندما تفرض الذات مفاهيمها ٠

* * *

نرى أن السلطة هي الذات التي تحاول أن تفرض مفهومها على المجتمع ٠ لكن الذات منقسمة وتؤدي الى صراع مع ذات الجماعة ٠ ويبدو هذا الانقسام بالتذمر الصادر عن الافراد ٠ ويؤدي انقسام

ذات الانسان لخصائصها الى انقسام ذات الجماعة فيؤدي الى صراع مرير بين أجزاء هذا الانقسام ٠

وبما ان الذات لا تقوم على حقيقة فانها تتبدل حسب تبدل قيم الذات الاجتماعية ٠ وهكذا تتبدل السلطة لانها ليست جوهرا ٠ وتعمل الذات على فرض سيطرتها دوما وفي كل الاتجاهات والاحتمالات ٠ ويعد هذا عمل الذات للبقاء على ذاتيتها ٠ وهكذا نفسر نظرية داروين اذ أن مانعتقده انه تطور ليس الا استمرار الذات واستمرار الذات في ذاتيتها وليس بقاء الافضل ، لان بقاء الافضل واستمراره هو بقاء واستمرار الذات المادية ، أي أن الذات هي الصراع الدائم لذات المجتمع في كل أجزائها وانقساماتها ٠ ومايبقى من هذا الصراع نسميه السلطة ٠

ان استمرار السلطة هو استمرار للذات المنحطة ٠ وانحطاط الذات يبدو في نظرية داروين وعند ماركس ٠ وتعبر هذه الذات عن الدكتاتورية لانها تعمل على تحطيم كل ذات اجتماعية ٠ وتتمثل الذات الشيوعية بدكتاتورية الحزب الشيوعي ، هذه الذات التي هي استمرار للائتلاف القائم ضمن ذات الحزب الشيوعي لكي يظهر تفوقه وليطبق اراءه ، تقوي الدكتاتورية التي هي تجسيد للذات في السلطة المتمركزة والمركزة على أساس قوي ٠

لماذا أدت السلطة في الشيوعية الى دكتاتورية ؟

ان اظهار الذات والتعبير عن ذاتيتها هو العمل الرئيسي للكتلة الحاكمة في المجتمع ٠ والشيوعية ، بما انها ائتلاف ، تعبر عن الذات ٠ وهذه الذات عبرت عن واقعها ومادتها باقامة ذاتها كمركز هام تنطلق عنه المفاهيم لتستمر في سيرها ٠ ولم تستطع هذه الذات

أن تحافظ عـــلى واقعها الا عـــلى أساس تمركز شديد ·· أي بواسطة الدكتاتورية ·

ان سير الذات الشيوعية في طريقها للدكتاتورية والاعتماد عليها لتوطيد قواعدها واسسها لدليل على أن هـذه الذات لا تعي واقعها الا اذا اعتمدت عـــلى قدرة هائلة من التمركز · وهـــذا لايتم الا بالدكتاتورية · وهكذا تعبر الذات عن واقعها بهذه الواقعية المادية الحتمية التي تدافع عن وجودها بشتى الوسائل · ولكي تحافظ على واقعها تعتمد على الدكتاتورية ، وهذه هي نقطة انطلاق تطور داروين للاحتفاظ بالاقوى · وهكذا فهي وحشية الغاب ومادية الشيوعية ·

ان اعتماد السلطة على الدكتاتورية يدل عـلى أن ذات الشيوعية لاتعتمد على حقيقة · وبما انها لا تعمل الا للابقاء على ذاتها لذلك نراها تتبدل وتتطور وتحافظ علىوجودها ببقاء الاقوى·وتصبح الدكتاتورية عدوة لذاتها وتنتقد بواسطة أجزائها · ولا تحافظ الدكتاتوريـــة عندئذ على وجودها بل تحافظ على كل ما يصدر عنها لتبقي عـــلى فعاليتها · ويصبح قادة الذات عبارة عن قادة لا يتقدم الواحد منهم خوفا من ان يهجم عليه الآخرون ·

ويكون سبيل البقاء الوحيد هو الدكتاتورية لانها تحفظ الذات من التدهور · ولكن الدكتاتورية لم تبرهن عن بقائها بقاء الانسب بل انها تبدلت وحطمت اثار كل ماتبعها · وهكذا تعود نظرية داروين للظهور ونرى أن الخلافات القائمة بين أقسام الذات تعمل لتحطيم بعضها · وهكذا ينطوي مفهوم ليقوم آخر ·

تظهر السلطة انها ذاتية المجتمع وتظهر الدكتاتورية انها امتداد

لسير ذاتية المجتمع نحو تحقيق عوامل الذات والمحافظة عليها · ولكن، رغم الدكتاتورية ، فان الذات تتبدل لان التبدل من اسسها · وهذا التبدل هو دليل عـدم وجود حقيقة للذات التي هي الجزء الجاهل من الكيـان ·

تتبدل الذات الاجتماعية وتتبدل معها كل مفاهيمها وصيغها · ولا تتبدل الدكتاتورية لانها تبقى الرمز الوحيد للذات · يتبدل فقط مقياس الدكتاتورية بالنسبة لتمركزها وهـذا يدل على أن الذات لاتعتمد على قياس واحد · والذات ليست الا المفاهيم التي تكونها ، فتتبدل وتعمل على ازالة ماتبقى من مفاهيم سابقة ·

تتعلق الذات بالدكتاتورية لانها الامكانية الوحيدة التي تحافظ بها على استمرارها · وبالرغم عن هذا فان الذات تبدل في مفاهيمها وتعود الحياة لسيرة صراعها داخل هذه المفاهيم · واذا لم تعتمد الذات على الدكتاتورية فان زوالها واقع فتأتي ذات غيرها تعمل على نفس المنوال · ولاتبقى السلطة وحدها وسيلة للتعبير عن الذات لان هـذا التعبير يزول اذا لم تدعمه القوة · وهذا مايعبر عن واقعية داروين بالحفاظ على النوع في عالم الغاب ، لذلك تكون السلطة في الشيوعية المعتمدة على الدكتاتورية شريعة الغاب · تستأثر الذات بالسلطة لانها الوسيلة الوحيدة ، غير الواعية للحفاظ على نوعها · ولا تكون هذه السلطة سوى ذاتية المجتمع التي تقوم على الصراع الدائم مع باقي المفاهيـم وتبقى قائمة مادامت تعتمد على وسيلتها الوحيدة وهي الدكتاتورية ·

* * *

- ٩ -

نقد مراحل الشيوعية من الديموقراطيـة للانسـانية

تتطور الشيوعية وتمر بحلقات يعرف عنها أنها سيرهـا نحـو تحقيق ذاتها · فلكي تصبح الشيوعية شيوعية يجب أن تمر في حلقات تحقق بكل واحدة منها شيئا معينا · وأول هذه الحلقات هي الثورة لكي تقضي على المفاهيم الباقية · وهكذا تعتمد على :

١ ـ أن تحطم المفاهيم الباقية لايجاد مفهوم جديد ·

٢ ـ انيعتنق المفهوم الجديد لتطوير ذاته ·

٣ ـ أن تصل بهذا المفهوم الى ذاته وغايته ·

لقـد درسنا الثـورة ومشكلة الطبقات سابقا ولا يمكن العودة اليها · ومايهمنا هو النقطة الثانية التي تعتمد عليهـا الشيوعية · لذلك لايمكن القول أن هناك شيوعية بل ان هنـاك سيرا نحوهـا كما تراها السلطة الحاكمة · ودليل على هذا هو أن الشيوعية تمر بحلقات هي الديموقراطية والاشتراكية والدكتاتورية والشيوعية · فنرى منهذا أن الشيوعية غير موجودة بل هناك اعتقاد بأنها ستطابق يوما ما اذا نجحت هذه الحلقات في تطبيـق مفاهيمها · لننظر الى هذه الحلقات بشكل عام ·

كيف يمكن أن تعتمد الشيوعية عـلى الديموقراطية ؟ يقال بأن الديموقراطية تمثل الشعب لانها تعمل على التخفيف من حدة التوتر بين أعضاء المجتمع بشكل جماعات أو أفراد ·

وكيف تعتمد الشيوعية على الاشتراكية ؟ تعتمد عليها لانها الوسيلة الاكثر تطويرا لهدف معين ، ولانها أساس متين لبناء مجتمع على شيء من المساواة والعدالة ، ولانها النواة لتركيز البناء على قواعد متينة ٠

وكيف تعتمد الشيوعية على الدكتاتورية ؟ تعتمد عليها لانها تصبح الاداة الفعالة لتثبيت قوى الاشتراكية وتعليم الناس طرقها ، ولان الدكتاتورية ضرورية للقضاء على كل مايقف من عراقيل فيوجه تطبيق النظام القائم الذي يجب أن يمر بهذه المراحل ٠

ونستنتج مما قيل أن الشيوعية تعتمد على مايلي :

١ ـ القضاء على كل المفاهيم ٠

٢ ـ الاقتراب من قاعدة شعبية هي الديموقراطية ٠

٣ ـ تطوير هذه القاعدة لتصبح حقيقة واقعية ، بالنسبة للناس ولتصبح النظام الوحيد لهم ٠

٤ ـ تنفيذ وتطبيق هذه القاعدة لكي لاتزول ولتبقى ثابتة ، وهذا يؤدي للدكتاتورية ٠

٥ ـ الوصول الى الفردوس أو الى الانسانية بعد زوال الدولة ٠

* * *

ماذا نستطيع أن نوجه انتقادا لهذا التطور والانتقال من مرحلة الى أخرى من الناحية الفلسفية ؟

تريد الشيوعية القضاء على المفاهيم الاخرى وتحاول أن تبني مجدها على اثار الاراء والنظريات المختلفة التي لم تكن تعبر الا عن موقف أصحابها واختلافاتهم ٠ وهذا مافعلته :

١ ـ انالقضاء على المفاهيم الاخرى هو ثورة الذات ٠
٢ ـ الاقتراب من القاعدة الشعبية هـو تطبيق مفهوم الذات على الناس ٠
٣ ـ تطوير الذات هو تثبيت قاعدتها والاعتماد عليها ٠
٤ ـ تطبيق الذات هو الحفاظ والبقاء بالدكتاتورية ٠
٥ ـ الوصول للانسانية والقضاء على الدولة بهذه الوسيلة هو تحقيق مملكة الذات ٠

هذا التحليل يقودنا للقول انالذات هي التي تعمل فيالشيوعية٠ ولايمكن للذات أن تعبر عن الكيان ولا أن تكون الوسيلة لتحقيق الكيان ٠ ان الطريقة التي تسير عليها الذات تختلف تماما عن حقيقة الكيان ٠ ولايمكن تحقيق الفردوس عن طريق الذات لان الفردوس هو من وحي الروح أو السـلام الواقعي للانسان بينما الذات هـي التحقيق العملي اللاواعي للمادة ٠ لذلك لايمكن الوصول الىالفردوس أو الى ازالة المفاهيم لان ذاتية المجتمع الشيوعي تعمل لابقاء ذاتها كما هي ، ولذلك فهي تبقى محتفظة بوسائلها ٠ ان سير الذات يبقى على خط واحد وهكذا لا يمكن أن يؤدي الى الهدف المعنوي الـذي تعمل لاجله الذات٠وهكذا تكون الذاتعمليةسلبية لايجاد السلامالحقيقي٠

ان الانتقال من شكل لشكل آخر لايعبر عن سير الذات على نمط واحد ولغاية واحدة ٠ واذا كانت الذات تعبر عن مفهوم ثورة المادة فانها تبقى ثائرة طالما انها لاتعي الجوهر ٠ واذا كانت تنتقل مـن حلقة الى أخـرى فمن الممكن أن تظل هكـذا ولاندري أين ستصل ٠ ويجعلنا هذا الانتقال أن نفكر بأن حلقات الانتقال ومفاهيمها مختلفة طالما أن الحلقات التي تنتقل بها لاتعي ذاتها وهكذا تعمل الذات في حلقة مفرغة ٠

يبقى انتقال الذات من مرحلة الى أخرى مفهوما واحدا لان الذات في كل ادوارها ، لا تعبر الا عن امكانية واحدة للوجود وهي الثورة المستمرة للمادة ٠

لاتقضي هذه الثورة المستمرة على مفاهيم صراع الانسان مع نفسه وصراعه مع المجتمع ، أي أن هذه الثورة التي انطلقت من اللاوعي تبقى سائرة على نفس الطريق · وطالما ان الثورة المادية لاتقدر ان تقضي على هذه المفاهيم فانها تبقى ثائرة لانها تخلق مفاهيم جديدة للوجود وأشد وأقسى من القديمة · وهكذ تكون مفاهيم الذات هي التي تسيطر على المفاهيم وتكوينها · وتصبح هذه المفاهيم المجال الوحيد للمادة ، فلا تقدر الا أن تعبر بوسائلها · وهكذا تبقى المفاهيم ذاتها ·

ان انتصار الذات مؤقت· لكن الشيوعية تحاول أن تجعله مؤبدا· تأمل الذات أن تصل الى الفردوس والى أبدية السعادة ولكنها لا تعمل شيئا لاجل الوصول ووسيلتها لاتؤدي الى السعادة · فاذا كان الهدف مجيدا يجب أن تكون الوسيلة مجيدة · ولايمكن ان يكون التبدل دليلا قاطعا على اظهار الحقيقة · ليس هذا فقط بل ان الذات لاتنتقل حقا من حلقة لاخرى بل ان ماتفرضه انتقالا ليس الا تحويرا لاعمالها· ان اعتقادها بأنها تعمل لتثبيت قاعدة شعبية ليس الا محاولة لفرض ذاتها بواسطة تلك الطريق ، ومحاولتها للسيطرة على عقول البشر ليس الا تثبيتا لجهودها لفرض نظام عنيف قاس · وهكذا لا تخرج الذات عن دائرة صراعها مع المجتمع ·

هكذا تحاول الشيوعية أن تظهر معالم فكرة جديدة للعالم · انها تحاول أن تجعل من الذات فكرة · وليس من المعقول ان تكون الذات فكرة بل أن الفكرة هي التي تتجسد بالعمل · ان ماتبشر به الشيوعية هو انحراف في المجال الفكري بين الناس القائم على الصراع لانه لا يتحقق بوسائله الخاصة · وهذا يدل أن الذات ، بحلقتها المفرغة ، تعمل دوما على اظهار فكرة لايمكن أن تكون صحيحة لانها قائمة على الصراع · تعتقد الذات أنها بتبديلها لمفاهيمها ستصل الى النهاية التي تتصورها · ألا يمكن لتلك النهاية المفروضة أن تتبدل ؟

- ١٠ -

الازمـات

يقال أن النظام الرأسمالي عرضة للازمات التي تبدو كل فترة · ويفصل بين فترة وأخرى مدة من الوقت · ويمكن القول ان العامل الفردي وحرية العمل والنظام الاقتصادي القائم على الحرية وتقسيم العمل هي التي تؤدي الى هذه الازمات · ويمكن أن تتدخل الطبيعة وتتحكم في الازمة ·

هل هناك أزمات في الشيوعية ؟ لم يظهر لنا الوقت أن الشيوعية قد تعرضت لازمة اقتصادية وذلك لان السلطة هي التي تمسك بيد من حديد · وطالما أن الناس لايقدرون أن يعملوا ما يشاؤون ، وطالما انهـــم لايستطيعون أن يندفعوا في مجالات يخلقونها بأنفسهم لذلك لاتوجد أزمات · وطالما أن الشعب يخضع لمقررات السلطة فلا يكون معرضا لاي اضطراب أو أزمة · وكيف يمكن أن تقع الشيوعية في أزمة طالما أن المستوى ضعيف والحياة تسير على وتيرة واحدة ؟

وماهي الازمة في الشيوعية ؟

رغم أن الاسباب التي ذكرها الاقتصاديون هي زراعية أو اقتصادية أو نفسية لكن العامل النفسي هو السبب الاكبر في الازمات ، وذلك لان البشر يحاولون أن يصلوا الى الدرجات الاجتماعية الاولى بأيـة وسيلة كانت · ولانستطيع أن ننفي العامل النفسي من الشيوعية للاسباب التالية :

١ ـ لم تظهر الشيوعية انها فكرة انسانية تحقق الكيان الانساني ·

٢ ـ يبقى الاضطراب سائدا في نفسية الانسان لانه يحاول أن يطبق مفهوم الذات في كـــل المجالات ويعتبر خصائصها ضرورية لوجوده ٠

٣ ـ يتخبط الانسان في المفاهيم القائمة ، وتبقى المفاهيم سائدة في المجتمع الشيوعي ٠وهكذا يبقى الانسان في حالة نفسية قلقة لا يتخلص منها بسهولة ٠

وهنا نصل لمفهوم الازمة في الشيوعية ٠ توجد أزمة اقتصادية منطوية في الشيوعية وذلك لان الافراد يعيشون في مستوى معيشة بسيط ٠ أما الازمة الحقيقية فهي الازمة النفسية ٠ انها في أزمة دائمة هي أزمة النفس ٠

ونفسية الشيوعي تظهر الانكماش الى حدما وهذا يعود الى الكبت الذي يقاسيه في كل المجالات ٠

وهكذا نجد أن مفهوم الازمة الحقيقي موجود في الشيوعية ، هذه الازمة التي تنشأ عن صراع الذات مع عوامل تكوينها ومع كل ماتخلقه من مفاهيم وقيم ٠

* * *

- ١١ -

الشيوعية والانسانية

ماهي الانسانية ؟ هي تفهم الانسان لنفسه ، وهكذا هي تفهمه للآخرين • هي محبة الانسان لنفسه ومحبته للآخرين بنفس المقدار• فهي اذن انطلاق الانسان في كيانه •

ليست الانسانية مجموعة من الدول تحت حكومة واحدة لان الناس يبقون كما هم وهذا لايبدل شيئا من مفهوم الامة والدولة • الانسانية هي تفهم الانسان لطاقته وقدرته ليحقق كيانه العظيم •

الى أي حد تنطبق هذه النظرة على الشيوعية ؟

تزعم الشيوعية انها تعمل لاجل هدف انساني أي لهدف تخلص به الانسانية من شقائها وماضيها • لكن ماهي الوسيلة لتحقيق هذه الغاية ؟

قامت الشيوعية على تناقض التناقضات وعملت على أن تقوض كل نظام حسبته واقعا أو لم تحسبه • وفي الواقع لايوجد نظام قائم بحد ذاته بل ان كل نظام هو معتقدات تصدر عن البعض لتكوين نظام مؤقت لفترة ما • وهذا النظام يصدر عن مخيلة الانسان • وما افترضته الشيوعية نظاما وحاولت تقويضه لم يكن الا خيالا في دماغ ماركس العبقري • فكان ماركس أكبر خيالي ولو كتب مسرحيات لكان أروع المسرحيين •

لقد رأينا كيف أن الانظمة المتعددة لم تكن حقيقة ولا واقعا ، ولم تكن غير مجموعة من التناقضات والمغالطات • وأتت الشيوعية وحاولت أن تستنبط نظاما خاصا من هذه المغالطات وبالتالي لتهدم

التناقضات . وهكذا وصلت الى ما اسمته الشيوعية . فهي اذن تبرير وجود تناقضات والقضاء عليها واستنباط قاعدة منها لا تزول .

لكن هذه القاعدة لم تبن على الانسان ـ الفكرة التي لا تزول ـ بل على كل زائل في الحياة ، على المتناقضات وعلى كل ماظهر في التاريخ . والتاريخ ليس تاريخ الانسان بل هو تاريخ أعمال الذات. فكيف يمكن أن تكون الشيوعية فكرة انسانية وتعمل لتحقيقها ؟

* * *

ماهو التاريخ ؟ التاريخ هو القسم الظاهر من كيان الانسان أي الذات . لو جمعنا التاريخ كله لانستطيع أن نجد الزمان والدرجة التي وصل اليها الانسان . أين وصل الانسان ؟ وماذا استطاع أن يحقق من تاريخه ؟ ان التاريخ هو حوادث ظاهرية لاعمال فئة قليلة من الناس كانت تنفذ الذات لاظهار واقع . وكانت هذه الاعمال تبدو كأنها متناسقة وتعبر عن شيء من وقت لآخر ، بينما لم تكن الا أعمالا جزئية وفرديةيقوم بها أفراد قليلون يحاولون أن يعبروا بها عن كلمة مدنية أو حضارة . وماذا كانت الحضارة ؟ هل كانت حضارة كل شخص ؟ كلا كانت ارادة السلطة أو الذات ونادرا ما كانت تعبر عن تفكير القلة .

أين تقف الشيوعية من التاريخ ؟ تعتبر الشيوعية هذه الفترات فترات حقيقية من تاريخ الانسان . لقد اعتبرت الانسانية انها تلك الفترات أو الحلقات التي كانت تعبر عن ارادة السلطة أو الذات في مجالات معينة واعتقدت انها لو تستطيع أن تهدم كل تلك الحلقات وتبني حلقة جديدة فيكون باستطاعتها عندئذ أن تصل الى الانسانية. لكنها اخطأت .

اخطأت الشيوعية اذ أنها عدت تلك الحلقات تعبيرا للحضارة وللانسان بيد انها كانت تعبيرا للسلطة · واخطأت لانها بنت على رماد تلك الحلقات بعد أن أحرقتها ، أي انها أخذت سلبية تلك المفاهيم والمظاهر · وهكذا كانت حضارة الشيوعية هي تناقض التناقض أي تناقض الذات عبر التاريخ ·

وهكذا لاتعبر الشيوعية عن الانسانية بل تعبر عن سير الذات في متعرجات الحياة تتخبط بمفاهيمها المتعددة التي تظهر عبر التاريخ أي في الحوادث الخاصة التي لم تكن مرآة للانسان · وهكذا لم تتخذ الشيوعية نقطة انطلاق للاعلى بل اعتمدت على شكليات الايام والدهور وعلى الآراء المختلفة وعلى الحوادث المتبدلة على قساوة الانسان وبربريته واستمدت منها كلها نظرية جديدة عدتها واقعا ·

لقد عدت العبودية مرحلة من مراحل التاريخ ولم تكن العبودية سوى مظهر من مظاهر الذات أي قساوة الانسان · وعدت القنانة والاقطاعية مرحلة أخرى ولم تكن هذه سوى مظهر آخر من مظاهر الذات وانحطاط قيمة الانسان · وعدت التطور الصناعي والرأسمالية مرحلة تاريخية أخرى · رغم انها لاتعبر الا عن تقهقر الذات واتخاذ مظهر آخر من مظاهر البربرية والحقارة ·

واستمدت الشيوعية مبادئها من كل هذه واعتمدت عليها اعتمادا كليا بأنها حقائق تاريخية · وما كانت هذه الحقائق ؟ لقد كانت حقائق تصدر عن ذات غافلة يعمل أصحابها لاجل اقامة واقع اجتماعي بالنسبة لوجودهم · وهذا الواقع الاجتماعي دعي تاريخا لفئة معينة من الناس ·

وعلى هذا الاساس كانت الشيوعية مخطئة لانها عدت مظاهر مختلفة للذات الانسانية تاريخا حيا لوجود الانسان · ولم تكن هذه الظواهر سوى انفلات الذات في بوتقة المادة · وسارت الشيوعية على نفس الطريق ·

لم تدرس الشيوعية أخطاء تلك الحقب والحلقات · لم تجد حلا لمشاكلها · لم تعد الى جوهر القضية الانسانية ولم تدرس الاسباب التي تجعل الانسان أن يخرج عن نفسه ويصبح ذاتا مادية تتصل بالحيوانية ، بل اعتمدت على تلك الحلقات وأوسعتها نقدا وحاولت أن تخلق عكسا لها · فكانت العاقبة وخيمة اذ أن مظهرا آخر للذات قد بدأ يظهر ·· الثورة ·· السلطة ·· الدكتاتورية ·· وهكذا بقي التاريخ منتصرا ·· تاريخ الذات والصراع البهيمي بين ماهو واقع كذات وبين مايجب أن يكون كانسانية وكيان ·

لو عادت الشيوعية الى جوهر الانسان وتفهمته · لو عقلت أسباب اندحار الانسان وانحطاطه · لو درست أسباب انتصار الذات · لو حاولت أن تجد حلا لمشكلة خوف الانسان ، لتوصلت الى حل القضية ولتوصلت الى الانسانية ·

* * *

الانسانية هي العودة الى الانسان ، دراسته وانطلاقه الى أبعد حدود كيانه · والتاريخ يجب أن يكون تاريخ الانسان ·· تاريخ نموه الحقيقي ·· تاريخ تفكيره ·· تاريخ انطلاقه من مادته الى تاريخ وصوله الى روحه أي حقيقته ·

اذا لم تفترض الشيوعية هذه الحقيقة لكنها لم تفترض أيضا أن كل المؤسسات الفكرية التي اعتمدت عليها كانت مظاهر عامة لتخبط الانسان في مشاكله ، وهكذا لم تكن حقيقة · لكنها اعتمدت عليها وحاولت أن تطورها ·

* * *

هناك فرق كبير بين تاريخ البشرية وتاريخ الانسان · والتاريخ الذي نقرأه هو تاريخ البشرية القائم على الصراع الدائم بين قوى متعددة تعود لظهور الذات كالمبدأ الاول لتسيير دفة أعمال البشر ·

وهكذا تحاول الشيوعية أن توجد نظاما عالميا تطبق عليه مبدأ واحدا · ولكن هذا النظام هو النظرة العكسية المتناقضة لوجود أنظمة ومؤسسات قبلها · أما تطبيق المبدأ الواحد فهو خطأ فادح لانه ليس الا مظهراً مادياً لمبادىء غيره حاولت أن تعمل نفس الشيء لكنها لم تفلح ·

* * *

ليعد الانسان الى تاريخه هو ·· تاريخ فكره المطلق وليس تاريخ الحوادث ··· لكي يصبح انسانا ·

* * *

يعتبر هذا الكتاب نقداً للفلسفة السلبية ومحاولة لبعث فلسفة ايجابية تنطلق من الانسان وتنبعث عنه وتعبر عن كيانه ووجوده ٠

لقد حان للانسان أن يتبنى فكرة ايجابية لاتعتمد على التناقض والتهديم والفوضى ولا تقوم على الافكار السلبية التي سادت العالم ولاتزال تسوده ٠

هذا الكتاب يفتح قلب الانسان ونفسه ليشاهد الجوهر الكامن هناك ، ويوجه العقل الى دراسة الحضارة كعمل انساني فقط ، وهكذا يهدف هذا الكتاب الى ادراك حقيقة الانسان وتفهم طاقاته وامكاناته ٠

مطابع الأديب ـ دمشق

السعر ٢٠٠ قرش سوري

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 071966277